الأديب

محمّد ضمرة

القيم الوطنيّة، العلميّة والإسلاميّة في شعر محمّد ضمرة المعدّ للفتيان

نادي ساري الدّيك*

المقدّمة

بعد الرحلة مع الأدب والنقد، وبيان أهمّيّة الأدب في حياة الأمم والشعوب، وما تقدّمه الجامعات والمعاهد من جرعات في مناهجها لطلبتها في المراحل المختلفة، وللشرائح العمريّة المتعدّدة، تبيّن أنّ العلاقة مع أدب الأطفال، لا بدّ أن تعمّق الصلة بها، حتّى يأخذ الطفل نصيبه من هذا الأدب، وينمّى الفنّ الخاصّ بالأطفال، حتّى تتمّ النهضة الشموليّة في المجتمع والأمّة.

فما يحصل عليه الأطفال من اهتمام من لدن المجتمعات، في مجالات الحياة المختلفة أعمق بكثير، وأكثر أهمّيّة ممّا يقدّم لهم من نصوص إبداعيّة أدبيّة معدّة لشريحتهم، وما يقدّم من أدب أكثر شموليّة من النقد المعدّ لدراسة وتحليل النصوص الأدبية المعدة للأطفال، والسبب أنّ النقد في وطننا العربيّ الكبير نزر أو يسير، ونزر قليلة إذا ما قيست الأمور مع حجم البناء الأدبيّ، فأمّا ما يخصّ نقد إبداعات الأطفال، فإنّها أقلّ اهتمامًا ممّا يلاقيه إبداع الكبار، وكأنّ إبداع الراشدين أعمق أهمّيّة من إبداع اليراعات الصغار، وهذا يناددده الرأي تجاه النقد أيضا، حيث لم يحمل أدب الأطفال على محمل الجدّ، إن كان ذلك مقصودا أم غير مقصود، وكذلك النقد المؤسّس له على نتاجات الأطفال؛ لذا ارتأينا أن نقوم بدراسة تحليليّة لأشعار الشاعر (محمد ضمرة) المعدّة للأطفال، ونخرجها إلى الحياة النقديّة، حتّى يتسنّى للناس معرفة نتاجه المخصّص للأطفال، لأنّ هذا الأدب ليس أقلّ شأنًا من الأدب الموجّه أو المبني على فكرة يتقبلها الراشدون الكبار.

وبعد التمعّن في نصّه الشعريّ، والموزّع على ثلاث مجموعات صغيرة صدرت في عامي (2002-2003) في عمّان ورام الله، أخذنا طريقنا في استقراء النصّ، فكانت قراءة تحليليّة لنصوصه من الجوانب كلّها، انكشفت عن ثلاثة محاور أساسيّة: أوّلها التربية الوطنيّة من

---

* أستاذ الأدب والنقد – جامعة القدس المفتوحة.

خلال رصد علاقة الإنسان الفلسطينيّ بالأرض، ونضاله وعذاباته. وثانيها أهمّيّة العلم في تجذير الوعي الوطنيّ. أمّا ثالثها فهو التربية الإسلاميّة المستمدّة من التاريخ الإسلاميّ. وأفدت من دراسات سابقة في أدب الأطفال، وكتب نقديّة أخرى، حتّى نضج البحث الذي كان المنهج التكامليّ معيارًا للغوص في عمق النصّ، ومن ثمّ جاءت الخاتمة وقائمة المصادر والمراجع الّتي أعانت الباحث على فهم النصّ وإسناد الرأي النابع من فهمنا للنصوص الإبداعيّة، الّتي ألّفها محمّد ضمرة.

حياته:

محمّد ضمرة من الذين ولدوا في حضن الوطن، إلّا أنّهم تربّوا مع عذابات الهجرة والمنافي، ففي بلدة المجدل الصادق، المطلّة على سهل فسيح، حيث يتنسّم رذاذ البحر، وعبق البرتقال اليافي، ولد الشاعر محمّد عبد المعطي عبد الرحمن ضمرة، عام 1947م.[1]

وآل ضمرة من أصحاب الطرق الصوفيّة الّتي لها قيمها وثقافتها الخاصّة، ولها ما يمايزها عن محيطها عبر التمسّك بتلابيب العقيدة، وأذكار الله عبر لحن نغميّ صوفيّ، ولهم علمهم الخاصّ، والمعرفة الدينيّة الخاصّة، إلّا أنّها ذاقت ويلات الهجرة كغيرها من الأسر الفلسطينيّة؛ لذا نجد أسرة محمّد ضمرة وقد هاجرت من المجدل متوجّهة شرق البلاد، حيث أقامت في قرية رنتيس، وهي إحدى قرى رام الله في ذلك الزمن، ولم تزل تخضع إداريًّا لمحافظة رام الله، ففيها أنهى تعليمه الابتدائيّ، والمرحلة الثانويّة بمدينة رام الله، وفي عام 1965م، التحق بمعهد إعداد المعلّمين، ليتخرّج عام 1967م، وفي هذه السنة، اكتملت دائرة العذاب حول الوطن والشاعر معا، حيث نزح مع أسرته إلى شرق الأردنّ، وطاب به المقام بمدينة عمّان. [2]

[1] **دليل الكاتب الفلسطينيّ**، منشورات اتّحاد الكتّاب الفلسطينيّين، مطبعة أبو عرش، رام الله، فلسطين، 2001م، ص189.

[2] لقاء خاصّ مع الشاعر تجدّد لأكثر من مرّة بمدينة رام الله عام 1999م، وما بعدها من السّنوات.

بعدها، واصل تحصيله العلميّ، ليتخرّج في قسم اللغة العربيّة، في كلّيّة الآداب، ليحمل درجة الليسانس في علوم اللغة العربيّة وآدابها في عام 1976م، ومن ثمّ حصل على دبلوم الدراسات العليا في التربية وطرائق التدريس من الجامعة الأردنيّة.

بعد تخرّجه من معهد المعلّمين، عمل في حقل التعليم، ثم انتقل يعمل في الصحافة محرّرًا سياسيًّا في جريدة الصباح الأردنيّة في عام 1973م.[1]

منذ صباه ظهرت ميوله الأدبيّة، بذلك أخذ ينشر قصائده، ومقالاته الأخرى في الصحف العربيّة، منذ عام 1963م، وأخذ يتعرّف على الناس، ويعرفونه عبر المهرجانات والمؤتمرات المحليّة والعربيّة الّتي يشارك فيها، تعزيزًا لدور الثقافة الوطنيّة والقوميّة، إلى جانب تجديد الإبداع الشعريّ خاصّة، والأدبيّ عامّة، ويتمتّع الشاعر بعضويّة رابطة الكتّاب الأردنيّين، ورابطة الأدب الإسلاميّ، واتّحاد الكتّاب العرب، إلى جانب عضويّته في اتّحاد كتّاب فلسطين، ما جعله ينال أكثر من جائزة تقديريّة، أهمّها درع أمانة عمّان في الثقافة والإبداع. ومن يتتبّع نتاجه يجده قد أصدر مجموعة من الدواوين والأعمال الأخرى هي:

1- قافلة الليل المجروحة شعر- 1972م.
2- أحاول أن أبتسم– شعر- 1978م.
3- أقمار بيروت– شعر- 1983م.
4- وجع النخيل-شعر- 1996م.
5- كأنّه فرحي– شعر- 1999م.
6- عرس الروح- شعر- 2000م.
7- القدس أرض السماء- شعر- 2000م.
8- تجربة الإبداع الفلسطينيّ مشترك وباللغة الإنكليزية 2000م.[2]

[1] نادي ساري الديك، **أخوة التراب وهموم المكان، دراسات تأصيليّة في الشعر الفلسطينيّ المعاصر**، جامعة القدس المفتوحة، القدس، فلسطين، 2010م، ص 325.

[2] **م.ن.** ص 325.

وله ثلاث مجموعات شعريّة معدّة للفتيان أصدرها تباعًا وهي:

1- دعاء الغريب، شعر للأطفال، 2002م.

2- أشواق، شعر للأطفال، 2003م.

3- الأيّام الخضر، شعر للأطفال، 2003م.

فمن خلال نتاجه الشعريّ لم يحدّد لنا الشاعر تاريخًا محدّدًا لقصائده الشعريّة، أي بداياته الشعريّة، إذ لم تكن بدايته الشعريّة معروفة، بمعنى لا يوجد تتابع تاريخيّ واضح في كتاباته، في إظهار بناء قصائده، فعمر تجربته لم يحدّد من حيث البدايات، إلّا أنّ عطاءه لم يزل فاعلًا في مساحة الإبداع الفنّيّ في فلسطين والوطن العربيّ، إلّا أنّنا نلمس أنّ الوطن العربيّ عرفه شاعرًا عام 1963م، حينما نشر بعض قصائده في الجرائد اليوميّة والمجلّات العربيّة؛ لذا يكون محلّيًّا قد عُرف قبل ذلك أو في الفترة ذاتها، [1]

الإنسان الفلسطينيّ والأرض- الانتماء ورحلة العذاب

يعتبر الهمّ الذاتيّ معبرًا للهمّ الجمعيّ، والهمّ الجمعيّ جسرًا لعبور النفس المثقلة بنوازعها، لتعرية ما يشوب الذات من هموم ونوازع، وعذابات متجدّدة، كما جسّده (ضمرة) في قصيدته، كلمات النور، الّتي تعجّ بالآلام المتجدّدة منذ التهجير الأوّل، إلى نكبة حزيران وهموم الرحيل الثاني، والعيش في مخيّمات العذاب والتنقّل بين الأمكنة، بحثًا عن طلب لقمة العيش.

إبليسُ يشربُ من دمِ الشهداء
متكبّرا
وتلوحُ قطعانُ الجنود
مرّوا، وتحت نعالِهم ماتت غصونٌ
صدفةً إذن ما قيل

[1] **م.ن.** ص 326.

اَلغدرُ يأكل حقلنا وغدا ستأكلُ نارُهُ كلَّ الحقول
ها هم برابرةُ التتار
ها هم كلابُ الصيدِ في هذا الزمان
قتلوا أباه وأُمّه
ويدُ الجريمةِ تسلبُ الأرواحَ
في وضَحِ النهار
وشقيقتي !!! أوّاه إن ماتت وخبّأها التراب
سأظلُّ وحدي بين صفحاتِ الكتاب.[1]

من يتمعّن في النصّ وغيره من النصوص يجده يعجّ بظاهرة الحزن المستشري في نفوس الناس، لأنّ هذا الحزن ليس منقطعا أو متقطّعا، وإنّما هو متجدّد لأنّ أسّ المأساة لم يزل قائما، والعذابات فاعلة في تنمية الفكرة الّتي تجسّد ذاتها عبر أردية العذاب المتكوّن مع صيرورة النكبة، وانبعاثات همومها المتتابعة من خلال حراك الحياة وانبعاثها، فيكون الحزن لصيقا بالحياة الفلسطينيّة الّتي تتجدّد أنماطها، فالواقعة مُرّة والجريمة متجدّدة، تلك الجريمة التي حيكت بأسلوب معقّد، أدّى إلى إشراك الذات والمجموع، والمحيط في تنفيذها، فتكون لوحات الشاعر الشعريّة قد أظهرت تجلّيات الزمن المتتابع في شواخص العذاب الّذي يثقل كاهل الناس منذ زمن بعيد .

فالحزن لم يمنع الشاعر من ديمومه العطاء، وتعّدد أشكاله وقيمه، وإنّما مهّد للشاعر حتّى يسير على جسور ثوابته والقواعد الفاعلة في بناء الجسد الشعريّ، فنرى الشاعر يسير مع صيرورة تنوّعه الشعريّ عبر منجزه الإبداعيّ شكلًا ومضمونًا، فعمليّة الوعي الذاتيّ استُغلّت في عمليّة البناء الفنّيّ المتتابع، الّذي يستجيب للحدث المتجدّد، والشخصيّة الفاعلة والحالة كما كانت واقعا وكيف تكون مستقبلا؛ لذا نرى الشاعر قد انفتح على معطياته

[1] محمّد ضمرة، **قافلة الليل المحروق**، عمّان، الأردنّ، 1972، ص 50.

المتعدّدة، ليصوغ أفكاره بفنّ يخاطب الناس جميعا، كلّ حسب موقعه وثقافته، فنصّه الشعريّ تدرّج تصاعديًّا للغوص في معمعان المتلقّي الّذي يشكّل الهدف والغاية والوسيلة معا، فكان نضوج الشاعر يعيد في صياغة نصّه الشعريّ الّذي يخدم ويستهدف شريحة الأطفال، وبالذات مرحلة الفتوّة (الفتيان) لأنّ فنّانين مجيدين سخّروا معطياتهم، "وكثّفوا وأبدعوا في سياق حساسيّة لا بدّ أن تكون جديدة، لصدقها وشجاعتها، ولارتباطها بسياق تعبيريّ أكثر التصاقا بهذا الإنسان – الطفل الفطريّ الغضّ القابل للتشكيل، ولن ننسى أنّ الفن نوع من التجديد الدائم في قلب الثبات".[1]

لذا نجد الشاعر يجسّد حسّه من خلال عمل فنّيّ متجدّد، فليس الدور التعليميّ، أو الإرشاديّ هو المسيطر على نتاجه، وإنّما نجده يتفاعل مع الأفكار المساندة للحياة، والّتي تظهر الانفعالات وتوضّح حالات الدهشة، ويبيّن لنا الحالات الذهنيّة والعاطفيّة، الّتي تتمارى باطنيًّا من خلال النصّ الشعريّ، الّذي يجعل من الصدمة حالة إبداعيّة تفتح أمام المتلقّي سبلًا جديدة، دون النظر إن كان المتلقّي طفلًا أو إنسانًا يتمتّع من مكوّنات الثقافة الشيء الكثير، فيعمد الشاعر إلى خلق حالة من التفاعليّة مع الحياة، عبر النصّ الإبداعيّ، فيتحوّل الواقع الجامد إلى فنّ ملاصق وقريب من الروح والنفس معا، فيكون الطفل وقد توسّعت مداركه الإنسانيّة، وغدا إنسانًا ينظر إلى الحياة بمنظار جديد، أو بروح متجدّدة، قد تغاير واقعه الجديد أو السابق، ما يعني، انطلاقته نحو أفق أجمل وأرحب، حسب المعطى النفسيّ الجديد، الّذي يتوالد عبر بوّابات النصّ الشعريّ....

وبما أنّ الشاعر غدا غريبًا في وطنه كما نحسّ من نصوصه الشعريّة، ومن عنوان ديوانه الشعريّ (دعاء الغريب) لذا جسّد هذا الشعور بنصّ شعريّ، نرى فيه تموّجات النفس البشريّة والعذابات الّتي تتلبّسها، من خلال الحالة السرديّة الّتي جاء بها عبر أبيات قصيدته (دعاء الغريب)، فالبوح عنده لا يكون عارضًا، وإنّما نجده متأصّلا، يخرج من نفس فاعلة،

[1] محمّد قرانيا، **ظواهر التجديد في قصيدة الأطفال في سورية، دراسة تطبيقيّة**، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، (سلسة الدراسات 3) 2008، ص56.

مهما وصل الأمر، من حالات كشف النوازع، وتجسيد الذات الفاعلة مع المجموع، حتّى يظهر العلاقة الحميميّة مع المخاطب، والمخاطب هنا هو الله، لأنّ سمة الإيمان لا تتبدّل لديه، والإيمان بالله لا يخفت، وإن قست الحياة، ما جعله يتمسّك بإيمانه الرّبانيّ، ويؤكّد أنّ العلاقة مع الله سبحانه وتعالى، هي ركيزة الخلاص، أو أسّ الخلاص من واقع متأزّم، مهما غلت التضحيات، وعزّت حالات التلاقي، فبما أنّ الخطاب مع الذات الإلهيّة، لذا لا نجد حواجز تذكر، لأنّ الله أعلم ما في النفوس، وما يتستّر في جوّانيّات القلوب، فالغريب، (الشاعر) يرى العلاقة مع الله هي المتنفّس اليقينيّ أو حالة الخلاص الفاعلة من واقع مؤلم وهدّام... لا تنفكّ عراه من زمن ممتدّ في أفق العذاب.

لـربّي أصيـح وقـلـبي جـريـح
أنـاديـهِ ســّرا وجـهـرًا أبــوح
بـأني غـــلامٌ ذكـيٌّ طـمــوح
أحبُّ الـحـيـاةَ وحّـبي جـمـوح
ولكـنّ حظّـي بعمري كسيح
فـقـد شرّدتني بـدنـيــاي ريـح
وبيـتي عـــراءٌ وحلـمي ذبيـح
حملتُ صليبي كـأنّي المسيـح
فأينَ المـحّـبُ وأين النصوح؟
لأمضي لبيـتي فـقـد أستريـح[1]

هذه العلاقة مع الله، لم تحدّد، ولم تأت من فراغ، وإنّما هي حالة تفاعليّة مع الحدث، كي يظهر أنّ الله هو القويّ، هو الملجأ اليقينيّ للناس أجمعين، خاصّة المظلومين؛ لذا نرى الشاعر وقد جسّد هذه التجلّيات، بلغة فاعلة، تحمل المباشرة الكاشفة، وتضمّ في جوانبها،

[1] محمّد ضمرة، **دعاء الغريب**، دار الينابيع للنشر، عمان، دار البرق للنشر، رام الله، عمّان عاصمة الثقافة العربيّة، 2002م ط2، ص6 –7.

مضامين تظهر مدى اللوعة والحميميّة، والإيمان، والعذابات المتعدّدة، في روح الشاعر الإنسان، الّذي هو صوت حالات المضطهدين الّذين شرّدوا من ديارهم، نتيجة لمعطيات سياسيّة خارجة عن إراداتهم، ومعطيات أفكارهم. فالمقاييس الّتي تظهر المعاناة عند الكبار ليست مغايرة كثيرا عن المقاييس التي تجسّد معاناة الصغار أيضا أو شريحة الفتيان على وجه الخصوص، تلك الشريحة المستهدفة في خطاب الشاعر، وحيويّة تفاعله مع نصّه، وإن جاءت المسألة على الوتيرة الإخباريّة السرديّة ما يرينا أنّ المناجاة جاءت عبر أبديّة الصّياح، لأنّ الجرح غائر في الصّدر، فالقلب جريح نازف، والعلاقة مع الله لا تقف أمام طريقة تعبيريّة واحدة، فمرّة بالصياح ومرّة بالسّر، وأخرى بالبوح. كلّ ذلك ليظهر أنّه إنسان مظلوم، وأنّ الظلم الّذي يجسّده في نصّه، ليس ظلمًا عابرًا، وإنّما مخطّط له، إلّا أنّ الشاعر يعي ما يدور من حوله من حالات التفتيت مع أواصر اللقيا مع وطنه ومجتمعه، فيؤكّد للمخاطَب (الله) أنّه لم يزل يعشق الحياة، وقلبه ممتلئ بالإيمان، والطموح يتجدّد في نفسه، وهذا الطموح نراه يقتل، كما قتلت طموحات أخرى متعدّدة عبر أزمنة متعدّدة، فجعل المأساة التي أحلّت بالسيّد المسيح عليه السلام، معبرا لمأساته، فعندما غدرَ اليهود بالمسيح إبّان دعوته للسلام والطمأنينة، ورفضه للظّلم والعبودية، من الإنسان للإنسان، أدّى ذلك إلى صلبه ظلمًا، وإن يؤكّد القران الكريم أنّه لم يصلب (وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبّه لهم- النساء: 157) إلّا أنّ عمليّة إعداد الصليب قد حدثت فعلا، فجاءت عمليّة المشابَهة (بين الشاعر الفلسطينيّ - وبين المسيح - (حملت صليبي كأنّي المسيح)، وهذه المشابهة فعّلت جماليّات نصّه، على الرغم من بساطتها، فتكون بذرة العلاقة بين أركان الظلم والمظلومين قد تبلورت وتطورّت عبر نصّه الشعريّ، رغم بساطته وسهولته.

وهذا يعني استحواذ النصّ على القيم الجماليّة، زيادة على القيم الأخلاقيّة، والدافعيّة الإنسانيّة الّتي يؤمن بها الشاعر، فما التشبّه بالمسيح وصلبه، وحياته المليئة بالعطاء والسخاء، ما هو إلّا حالة توكيديّة ترينا أن أسس الظلم واحدة، وأنّ المظلومين تترابط وشائجهم مع بعضهم بعضًا، على الرغم من التباعد الزمنيّ، إلّا أنّ المسيح، يبقى رمزا فاعلا

للتضحية والعطاء، والمظلومين معًا، كما هو الفلسطينيّ الّذي يشكّل حالة توحّديّة مع ذات المسيح في السلوك والعطاء، وأنّ المظلوميّة الواقعة عليه، هي مظلوميّة مؤكّدة تتجسّد عبر أزمة وأمكنة متعدّدة، والصانع الوحيد لهذه المظلوميّة والمستفيد منها أبدا هم (اليهود) المغايرون مع المسيح والمسيحيّة فكرًا وعقيدة، كما هي المغايرة مع الفلسطينيّين المشرّدين، الّذين وقع عليهم الحدث المأساويّ في التهجير، وتفعيل الهجرة السليبة، في نفوس الفلسطينيّين، وإن وجدنا الحالة الترميزيّة البسيطة الّتي جاء بها الشاعر حينما جعل الفتى (الناطق باسمه) كما المسيح يجرّ في المنفى صليبه في حياته، وهذه الصورة لم ينفرد بها محمّد ضمرة فقط، وإنّما نجدها عند غيره من الشعراء كما السيّاب والبياتيّ وغيرهما، لما تحمله من مضامين أدبيّة وإنسانيّة فاعلة، وهذا الأمر (إدخال عنصر الترميز) في النصّ الشعريّ، قد يحمل حالة التلقّي مع النصّ فيها نوع من التدليل أو التشويش أو التأخّر الأدائيّ، وبالذات، إذا أردنا التبحّر في معمعان التلقّي التفسيريّ والفكريّ والعقديّ، لخاصّيّة الصليب والصلب ومعطيات الأثر الروحيّ للعمليّة كلّها، وقبل ذلك قد يجعل بعض الناس يقول، إنّ ضمرة قد أدخل مفردات عميقة الإرث الفكريّ لمرحلة عمريّة لا تحتمل ذلك، ما يجعل الغرابة وعدم التواصل موجودين، وكأنّنا به هنا أي بالشاعر ضمرة يتبنّى موقف المربّي والشاعر سليمان العيسى حينما استخدم مفردات عميقة الإرث المعرفيّ في علاقاته مع الأطفال، فقال "ربّما تعمّدت الرمز والصعوبة في الألفاظ أو الغرابة في بعض الصور، وربّما كانت بعض العبارات فوق سنّ الطفل، كلّ ذلك أتعمّده، وأقصده... لإيماني بقدرة الطفولة على الالتقاط، والإدراك بالنظرة". [1]

فعمليّة تطعيم النصّ الأدبيّ وبالذات النصّ الشعريّ، بفكرة معمّقة، أو برؤية فاعلة تحمل إرثا رمزيًّا أو دلاليًّا يحكي حالة من التفاعل مع الشيء، لا يعني أنّ النص المعني لا يجد قبولا فاعلا أو فلسفة مستصاغة من قبل الشريحة العمريّة المتوخّاة، أو المخاطَبة (ألا وهم الأطفال)، وإنّما نجد التفاعل مؤكّدا لأن كثيرا من الأطفال، يحملون روحا شيّقة، تتفاعل

[1] سليمان العيسى، **شعر الأطفال**، سوريا، 1981، ص 365.

مع محيطهم، والفكرة التي تنمي قيمهم وصلاتهم مع الحياة، وهذا ليس غريبا، لأنّ المربّين يؤكّدون أنّ النصّ الشعريّ، مهما تعمّقت الحالة الرمزيّة فيه لا بد أن يجد منحى خاصًّا للغوص في عمقه من قبل المعنيّين، والأطفال هم شريحة فاعلة، فمهما كانت النصوص معمّقة لا بدّ أن تكون ركيزة لهم في المستقبل؛ لأنّ العلاقة مع النصّ الجيّد لا تموت، حتّى وإن غيّبت عن المتلقّي بعض المفاهيم، وشرح القيم المتتابعة عبر أسطر النصّ الشعريّ .

ومن يتمعّن في نصوص (محمّد ضمرة) لا يجدها مسرفة بكلمات تتجاوز إدراك الطفل المخاطَب، وإنّما يجدها قريبة من معطياته الفكريّة والعلميّة، والنفسيّة، فمهما حاول الشاعر خلق جوّ نفسيّ ينفرد به عن غيره، يبقى هذا الجوّ من معطيات التفاعل مع النصوص، ومن هنا نقول: إنّ الخطاب المباشر مع الله في دعاء الغريب بمراتب أسلوبيّة ولغويّة متعدّدة، (من مباشرة، وبكائيّات، وترميز) نجده قريبًا من الروح الإنسانيّة الّتي يدافع عنها، ويحاول تجسيدها حتّى الوصول إلى الهدف المرتجى؛ لأنّ سمة الوضوح وإيثار السهولة في ألفاظه ومعانيه من السمات الملازمة له، حتّى أنّنا نحتسب بعض نصوصه عبارة عن خطاب مباشر وصريح يعجّ بالمباشرة والهجوميّة أحيانا، وذلك لانعكاسات الواقع على الذات الإنسانيّة، فتعدّد الواقع معلمًا واضحًا من روافد النصّ الأدبيّ بشكل عام، والنصّ المخصّص للأطفال بشكل خاصّ. ومن يتتبّع أيضا نصوص (ضمرة) يراه، يستخدم مفردات شائعة في حياة الشعب الفلسطينيّ لأنّها معبر فاعل في صيرورة النصّ، والسيرورة في البناء الفنّيّ والتلقّي على حدّ سواء، في المعاناة الّتي يلاقيها اللاجئون الفلسطينيّون، الّذين حرموا من أبسط مكوّنات العيش، ومقوّمات الحياة، إلّا وتشكّل سمة من سمات الفنّ القوليّ التعبيريّ وغيرها من المفردات؛ لذا نجد نتاج ضمرة يعجّ بها، لأنّها تشكّل سمة خاصّة تمتاز بها الحكاية الفلسطينيّة الّتي عاشها الناس ويعيشونها فيما بعد، لأنّ هذه المفردات يتعايش معها الناس، ويرسمون بها هواجسهم، وينقلون همومهم وأفكارهم للآخرين، وهذا من طرائق الحفاظ على علاقة خاصّة مع البيئة والمحيط؛ لأنّ هذه المفردات تنمّ وتشي عن مشاعر خاصّة تجاه الأحداث التي يعيشها الناس، عبر متتاليات الأيّام،

وديمومة الأحداث، حدثا تلو حدث، وهذا إدراك ما تمتلكه تلك المفردات من إيجابيّة نفسيّة وتفاعليّة خاصّة معها؛ لأنّها تمثّل قيمة مضافة لما يختمر في الذاكرة الفلسطينيّة من مفردات ومعاني لها أصولها وثوابتها وتوابعها؛ لأنّ الناس، يجعلون من لغتهم معبرًا لأفكارهم، ومن أفكارهم سلّما للصعود إلى لغتهم والنموّ معها عبر مقامات دلاليّة فكريّة معيّنة، تكون معروفة أو مبحوثا عنها، حتّى الوصول إلى الوظيفة الحتميّة للنصّ.

وهذا يفتح آفاقا جديدة أمام المتلقّي المخاطَب(الطفل)، حيث تثار لديه مكامن التفاعل والانفعال، فتكون اللغة معبرًا، أو جسرًا، لتوسيع مدارك الطفل الّذي يحمل تلك اللغة وتحمله معها، وهذا قد يثير الدهشة لدى المرسل والمتلقّي على حدّ سواء، حيث إنّ الطفل يستقرئ تجلّيات النصّ حسب مقدرته، وتفاعله مع عالمه النصّيّ الجديد، ما يفتح أمام مدارك الطفل مقياسًا جديدًا في تناول مفاهيم الحياة، والتعامل مع قيمها المتعدّدة؛ لذا يكون النصّ الشعريّ وقد حقّق أهدافه، من خلال إثراء المعطيات الّتي روّج بها، عبر هاجس الشاعر وروحه معًا، ومع تلقّي الطفل هذا النصّ بروحيّة متجدّدة.

فالبكائيّة المستدامة، والتضرّع إلى اللّه، والخطاب الموشي بالعواطف المستدامة مع خالقها، جعل ذلك مدخلًا فاعلًا في أن يكون نصّه محورًا يشكّل التصاقًا نفسيًّا مع النصوص الأخرى، للدفاع عن فكرته التي يؤمن بها، ويريد من الآخرين الإيمان بها، والتفاعل معها، فتكون القدس، قد توّجت نبضًا غدا افتتاحيّة لدعاء الغريب، ذاك الدعاء الذي يلخّص المشاعر، ويتطوّر فكريًّا كما هي نوازع الشاعر وهمومه وأفكاره.... فتكون حقوق القدس لوحة ناطقة من لوحات الروح المتوالدة مع الحياة:

بــــــلادي حبُّهـــــا صــــــدقُ وفـــــي أرواحِنــــا العشـــــقُ
يزيـــــــدُ قلوبَنــــا عزمًــــا فهـــــــذا عزمُنــــــا بــــــرْقُ
لنخـــــرجْ مــــنْ منافينــــا إلـــى قـــدسٍ لهـــا الشـــوقُ
أضــــاءتْ غربَنــــا نــــورًا ومنهـــــا نـــــوّرَ الشـــــرقُ
بهـــا قــــومي بنَـــوْا مجـــدًا ومـــا ظلمـــوا ومـــا عقّـــوا

وفيهـــا ذكـــرُهُم بـــاقٍ ورايـــاتٌ بهـــا دقّـــوا
لتبقـــى دائمـــا صـــرحًا يعـــجُّ لنـــورِهِ خلـــقُ
فلـــن نرضـــى لهـــا بـــدلا وفينـــا ينـــبض العـــرقُ
ولـــن تبقـــي مدنّســـةً يحـــطُّ بأرضِـــها الفســـقُ
ســـتبقى فـــي ضـــمائرِنا إلـــى أن يظهـــرَ الحـــقُّ[1]

إنّ البحث عن القيم الإيجابيّة من مزايا أصحاب الفكر التربويّ السليم، وأصحاب القيم والعادات الفاعلة في بناء المجتمع، وهذا ما نلمسه في نصّ (محمّد ضمرة)، الّذي جسّد فيه العلاقة مع القدس، أو شخّص عوالم الناس ومفاهيمها مع تلك العلاقة المتجدّدة؛ لأنّ القدس تشكّل إحدى ركائز الإيمان العقديّ والثبات الوطنيّ والإنسانيّ، فهو يسعى إلى تأصيل معالمها في النفوس، وإظهار مكانتها في العقول على مدار التاريخ، فالعلاقة مع القدس علاقة صادقة، فهي بلاده، أو رمز فاعل لتلك البلاد الّتي ينتمي إليها الشاعر، فحبّ الأرض صادق، والعشق يتبدّى في الأرواح، وهذا العشق يزيد حالات الثبات والتأصيل بين الناس، فمشاعر الشاعر(الناس) تجاه القدس كالبرق، الّذي يمثّل عزائم المحبّين في الخروج من حالات الذلّ في المنافي المتعدّدة لتكون القدس هي قبلة المشتاقين والعائدين، للّذين حرموا من المواطنة والوطن عبر عقود طويلة، وهذا التماهي مع القدس، يجد صداه مع شرائح متعدّدة من الناس، كلّ حسب منطلقه ومنفاه، لأنّها، أي القدس في صيرورتها، تمثّل قيمًا و نُظُمًا متعدّدة، يتلاءم معها كثير من الناس على اختلاق مسمّياتهم وأفكارهم والقيم التي ينادون بها، فالقدس حرم مقدّس، يؤمّه الناس جميعا، للتفاعل مع الأسس العقديّة السامية، على الرغم ممّا يعتريها من هموم ومصائب، إلّا أنّ الشاعر يرفض بقاءها مدنّسة بأيدي الأعداء، فالقدس وإن أنّت من الاستعمار والاستيطان وتغيّر الملامح العمرانيّة، إلّا أنّها تبقى خالدة في الضمائر الحيّة السامية، للخلاص من عذابات متجدّدة يستجلبها المحتلّون

[1] ضمرة، **دعاء الغريب**، ص3-4.

معهم، عبر أزمنة متفاوتة، وكأنّه يكتب رسائل "إلى أصدقائه الصغار، تعكس معرفته بهم، ومعايشته لهم، ومشاركته طموحهم، وأحلامهم".[1]

تلك الهموم التي يشترك بها الناس جميعا، على اختلاف مسمّياتهم وهواجسهم، وأعمارهم كذلك، وهذه العلاقة بين (الشاعر والناس) والقدس، تعكس حالة من النهوض بالفكرة الّتي يدعمها الشاعر، ويعزّزها الآخرون؛ لأنّها تنمّ عن الحياة السويّة، والسموّ بالفكرة والأخلاق معًا، وكأنّنا نلمس عشقًا بين القدس والشاعر، فهو لم يتقمّص شخصيّة معيّنة، ولا قناعًا ساترًا، أو استعاريًّا، لإيصال بوحه للناس، وإنّما نجده مباشرًا يخاطب الناس جميعا، عبر شريحته المستهدفة، الّتي تمثّل أسّ الترابط الفكريّ والمعرفيّ مع توجّهاته وقيمه، وهذا يريح الشاعر والمتلقّي على حدّ سواء؛ لذا نجد نصّه يستلهم روحيّة العلاقة الحميمة بين الشاعر ووطنه (أو القدس) الّتي تشكّل رمز الوطن وأسّ المعبر إلى الوطن، ويشعرنا أنّ القدس تعبق بالذكريات والرايات الّتي جاء بها الأجداد عبر الحقب الزمنيّة المتلاحقة، لأنّ تلك الحقب مليئة بالمشاعر العاطفيّة الصادقة، ومحمّلة بالقيم الجهاديّة والدفاعيّة (ستبقى في ضمائرنا إلى أن يظهر الحقّ)، فهو يشعرنا أنّ القدس تشعر بالتغيّرات المتعدّدة، والتقلّبات المتلاحقة، حتّى أوصلتها الأيّام إلى ما هي عليه من واقع مرير، ما يثير الشجن والحميّة لدى المؤمنين بحتميّة النصر والتغيير، سواء كان ذلك عقديّا أو استشرافيًّا أو قناعات فكريّة دنيويّة، إذ لم نلمس أنّ الشاعر مايز بين المخاطَبين عبر قناعات معيّنة، وإنّما جعل الخطاب مفتوحا، يخصّ الناس جميعًا، وخاصّة المحبّين للقدس رمزًا للوطن والعقيدة معًا، فكان الشاعر يركّز على إظهار معالم القدس، وعلاقة الناس بها، حيث "يوضّح الشاعر موقف كلّ واحد منهم".[2] أي من ميولات الناس وهواجسهم وعواطفهم تجاه القدس، لأنّ عواطف الناس شاخصة تجاهها، إلّا أنّ طرائق التغيير متباينة تمامًا، بمعنى لكلّ إنسان طريقة خاصّة في نسج العلاقة مع القدس، وإن

[1] قرانيا، **ظواهر التجديد في قصيدة الأطفال في سوريا**، ص50.

[2] عبد اللطيف شرارة، **إلياس أبو شبكة**، دار الصياد، بيروت، لبنان، د.ت، ص111.

أدّت تلك الأمور إلى توجّه الناس كافّة للخلاص من الواقع الّذي أوصل إلى استعباد القدس أو استعمارها معًا، فالقدس معبر لأرض الوطن، وهي جوهرته وقيمه، فتكون الجذور ممتدّة في العمق، كما في قصيدته أرض الجدود...

كرهـــتُ القيـــودا وهـــذي الحـــدودا
وحطّمْـــتُ خـــوفي لأنّـــي وحيـــدا
لأبعـــثَ مجـــدًا بأرضـــي تليـــدا
وأحيـــا بـــداري كريمـــا ســـعيدا
فقـد عشـتُ عمـري وليـــدا شـــريدا
وأرض بـــــلادي تصـــدّ الهـــودا
ليبقـــى ثراهـــا يضـــمّ الجـــدودا
ففجـــري قريـــبٌ ليشـــرقَ عيـــدا
ونـــأتي إليهـــا جنـــودا أســـودا
ونبـــدأ عهـــدا أصـــيلا مجيـــدا[1]

نستطيع القول من خلال النصّ الموجّه للفئة المستهدفة، إنّه استلهم مجموعة من الخصائص الّتي تستجمع من خلال رؤية الشاعر وفلسفته الفكريّة، حيث يستطيع القارئ تلمّس حالات الرفض الّتي يدافع عنها الشاعر، ويأتي بها، معزّزًا قيمه وخصائصه الروحيّة، وكأنّه يتفاعل مع لازمة فكريّة تنمّ عن الرفض، حيث يهيّئ النفس أن تتشبّث بمعطيات الثورة الّتي توصل بالإنسان إلى برّ الأمان، لذا نجد الخطاب مباشرًا، بلغة إيقاعيّة محسوسة تفعّل روحيّة التلاقي بين الأشياء، ما يرينا الشاعر وقد أكّد على أهمّيّة الثورة الّتي تتسربل عبر الرفض المتمثّل في تحطيم القيود والحدود معًا؛ لأنّ هذه القيود هي التي تجعل سرمديّة العذاب والفرقة قائمتين، فعندما تنكسر تلك القيود تكون عمليّة التواصل فاعلة، كما أنّ رفض عامل الحذف من الأسس الّتي تساعد على حالة التوحيد بين

[1] ضمرة، **دعاء الغريب**، ص2.

الأشياء، حيث كلّها عوامل مترابطة، إذ كلّ يوصل إلى الآخر، فالقيد يوصل إلى تجزئة الوطن، والتجزئة تبقي على القيد، وكلاهما يوصل إلى الخوف المانع لصيرورة الحياة الناقصة؛ لذا نجد حالة التمرّد قائمة، لكسر القيد، وإعادة بناء الحدود حيث فتّت الشاعر تلك النظم، كي يبنى مجدًا جديدًا وفاعلًا، فالمجد الحقيقيّ هو الذي يقام على أرض موغلة في عمق التاريخ، وتقام العلاقة الودّيّة مع الأرض، حيث السكن الّذي يوصل إلى الطمأنينة. كلّ ذلك يتحقّق بعد تفعيل الفكر الإيجابيّ ورفض الخنوع، ما يؤدّي إلى تحرير الأرض والإنسان معًا، فتحرير الأرض يوصل إلى تحرير الإنسان، وتحرير الإنسان يوصل إلى تحرير الأرض، إذ كلّ يشكّل معبرًا أو مدخلًا خاصًّا للندّيّة أو للمقابل. بذا نرى السعادة وقد تجسّدت في نفسيّة الإنسان، ما يؤدّي إلى سلوكيّات إيجابيّة توحي أنّ العمليّة متداخلة ومتواصلة، وهذا يؤدّي إلى رفع المعنويّات، لدى الصغار والكبار معًا، حتّى ليبدو أنّ العمليّة الّتي يسلسلها الشاعر عبر سطوره الشعريّة ملموسة ومحسوسة من خلال الهاجس الإيجابيّ الّذي يسيطر على الناس؛ لأنّهم رفضوا الخنوع وتوحّدوا بالأرض، فغدت ملاذًا لهم وسكنًا، وهذا تعبير صادق عن المشاعر والعواطف الصادقة، صاغها الشاعر عبر مفرداته، وتلقّاها المعنيّون عبر أفكارهم وأحاسيسهم، فتكون قد دخلت عالم الطفل، ودغدغت ميوله ومشاعره، واستطاع النصّ الوقوف على اهتمامات الناس (المُرسِل والمستقبِل)على حدّ سواء، ما يعني أنّ هذا النصّ يضفي على ذاته ومتلقّيه مشاعر فيها نوع من البريق والجاذبيّة للمشاعر والمردود التشويقيّ، من خلال هذه الإيحاءات والجماليّات الّتي توصل إلى السكينة الّتي " من شأنها أن تجعل الطفل يتعلّق بتراب وطنه ومائه وسمائه، ويعتزّ بتاريخه ورموزه وشخصيّاته ويحافظ عليه". [1]

ومثل ذلك يرينا القيمة الأدبيّة للنصّ، والمنحنى الفكريّ والثقافيّ والتربويّ أيضا، وهذا يجسّد الإيجابيّات؛ لأنّها تناقش المردود الفعليّ للحياة، حيث نرى تيّارًا مغايرًا للحرّيّة والعداء للوطن والمواطنة، وهذا ما يوضّحه موقف الاحتلال، والظلم والاستعمار والسيطرة

[1] قرانيا، **ظواهر التجديد في قصيدة الأطفال في سوريا**، ص198.

الظالمة على مقاليد الحياة المختلفة؛ لذا لا يوجد حياد من خلال النصّ الأدبيّ، وإنّما يوجد توحّد بين الوطن والرافضين للذلّ والخنوع ومجريات الاستعمار والاستيطان ...فيقول:-

لســـاني يقـــول وشـــعري الـــدّليل
بـــأنّي حـــزينٌ وجســـمي عليـــل
فبيتـــي أســـيرٌ بـــأرضِ الجليـــل
فقـــد جـــاءَ لـــيلًا عـــدوٌّ دخيـــل
فشـــرَّدَ أهلـــي بكـــلِّ ســـبيل
ففـــي كـــلّ بيـــتٍ تهـــاوى قتيـــل
فكيـــفَ سنمضـــي بلَيْـــلٍ طويـــل
وذكـــرى بـــلادي الـــدواءُ الجميـــل
فلســـطينُ حـــقٌّ علـــى كـــلّ جيـــل[1]

وعلى هذا النحو يمضي الشاعر (محمد ضمرة) حيث تمتزج حالات العذاب، بروحيّة الأمل، فنراه يصف واقعه، ويجسّد ملامح الذلّ والقهر، الّتي تصيب الناس، أو الّتي تصاحب الناس نتيجة لممارسات الاستيطان والاحتلال، فغدا المواطن والوطن أسيرين، لا محالة، ما يعني المفارقة القائمة بين هواجس الناس وهموم الوطن، ونراه، أي الشاعر، وقد وضع يده على هموم الناس ومآثر الوطن السليب معا، فهو يطوّع نصّه عبر أسلوب بسيط في مخاطبة الناشئة، والأجيال المتلاحقة الّتي يقع على عاتقها خلاص الوطن والنفس معا، ومثل ذلك تأثير "للغاية وبثّ القيم الإنسانيّة النبيلة في نفوسهم"؛[2] لأنّ الإنسان بلا قيم وأخلاق ودوافع، كما الجسد بلا روح، لأن أشعاره تمثّل الحياة التي يعيشها الناس تمثيلا صادقا، وهذا يعني، أنّ القيم التي يدافع عنها الشاعر، توصلنا إلى برّ الأمان، عبر الخلاص من الاستعمار، والذلّ المرافقين لوجود الاستعمار، ومثل ذلك يرينا أنّ الشاعر حثّ على

[1] ضمرة، **دعاء الغريب**، ص12-13.

[2] فوزي عيسى، **أدب الأطفال**، منشأة المعارف بالإسكندرية، جلال حزّي وشركاه 1997 ص 41.

الخلاص من العبوديّة والفقر والذلّ، وحالات التشرّد الّتي أحاطت بالناس، نتيجة لفقدانهم الوطن والحرمان من المواطنة، ما يعني أنّ ديوانه الأوّل المعدّ للفتيان (دعاء الغريب) يعجّ بهذه القيم والمفاهيم الّتي يؤمن بها الشاعر، ويحاول إيصالها للناس دون مواربة، للإيمان بها وتطبيقها في أرض الواقع.

بيوتُنـــا الخيـــامُ والـــريحُ والظـــلامُ
نحيـا بهـا جميعـا وعيشُـــنا زحـــامُ
قبورُنـــا جحـــيمٌ وليلُنـــا ســـقامُ
فأرضُـنا السـليبة يحيـا بهـا اللئـامُ
وشـــردوا بنيهـــا وفوقهـــا أقـــاموا
فقـد أتَـوْا إليهـا وغـــدرُهُم ســـهامُ
ونحـن في المخـيم كأنّنـــا حطـــامُ
فِراشُـــنا التـــراب وفُرْقَـــةً ننـــامُ
ودمعُنـــا شـــرابٌ وحزنُنـــا الطعـــامُ
فـــأينَ يـــا أخانـــا العـــدلُ والســـلامُ؟[1]

ما سبق يرينا أنّ حياة الفلسطينيّ غدت معمارًا شعريًّا ثريًّا في بناء نصّ (محمد ضمرة) الشعريّ، وهذا يجسّد التخصيب الدلاليّ والمعرفيّ لبيئته الفكريّة عبر أدواته الفنّيّة، فيرينا موجّهاته الثقافيّة والاجتماعيّة حين تلتئم العلاقة بين هاجسه الروحيّ وواقعه الأكثر إيلامًا، ما يقرن ذلك في حياتنا المستمرّة، بمفردات بسيطة، وصور ذات دلالة فاعلة، وكأنّه يقصّ علينا قصًّا حكائيًّا له وقعه الخاصّ في الروح والنفس معًا، ما يعيد بناء الواقع الفلسطينيّ المستمرّ منذ عشرات السنين، فعلى الرغم من واقعيّتها (صُوَرِهِ) إلّا أنّها مفعمة بالدفء والجدّيّة في الطرح، والمعبّأة بالألم، ما دفعه إلى استخدام مفردات بدلالات هامسة أحيانا، وصارخة أحيانا أخر، ما يعني كثرة مفردات لها جاذبيّتها النفسيّة (إن كانت تلك الجاذبيّة

[1] ضمرة، **دعاء الغريب**، ص27-28.

إيجابيّة أو سلبيّة)، (وهذا يجسّد العواطف الصادقة تجاه الحدث الذي يرنو للناس (برشاقة أحيانا، وغلظة أحيانا أخرى)؛ لذا نجد مفرداته تعجّ بمكوّنات الذاكرة الفلسطينيّة من أشياء: (خيام، رياح، ظلام، جحيم، زحام، سقام، مخيم، وتراب)، إلى أن يختمها بجملة فيها أبعاد متعدّدة: (فأينَ يا أخانا- العدل والسّلام؟))، فبدأ البيت الشعري بالتساؤل، ويعني مردودات فكريّة ونفسيّة متعدّدة، لذا تكون لازمة التحكّم هي المسيطرة على فكرته وطرحها؛ لأنّ التساؤل جاء بعد حالة سرديّة لصور تحمل آهات عميقة، رسمها بمفردات تحمل حالات التنوع العذابيّ الّتي يمرّ بها الإنسان، وهذا يعطينا حالات متعدّدة، تميل إلى رؤى متعدّدة هي الأخرى، وإن كانت في المجمل، تصبّ في خانة هدفه وقيمه الّتي يدافع عنها، ويقاتل من أجلها، ما يرينا عمقًا في التوجّه الأدائيّ لنصّه الشعريّ، المحمّل بالأفكار والقيم الجادّة.

العلم منارة الوطن

ينتقل ضمرة في هذا المحور للحديث عن العلم وأهمّيّته في المحافظة على الوطن، وفي تعزيز التربية الوطنيّة من خلال فعل الوعي. فهو ينتقل من حالة التجسيد للمأساة الّتي لحقت بشعبه ووطنه، إلى فضاء أكثر رحابة، ألا وهو فضاء الأشواق، وهو ديوانه الثّاني، بعد دعاء الغريب، هذا الفضاء الرّحب جعله يعجّ بقيم ودعوات لها، لتبشّر بمستقبل قادم أو آت، فكأنّا به يقول: إنّ حرّيّة الأوطان والإنسان، والعودة إلى الرقيّ في الحياة والمعرفة، لا تتأتّى إلّا عبر دروب العلم والمعرفة، فكأنّه يدعو للخلاص من الواقع المرتهن، بالعلم وقيمه، تلك القيم التي يدافع عنها عبر نصّه الشّعريّ، ولّتي جاء بها عبر لوحات متعدّدة، (وهي لوحات) حيث كلّ لوحة لها خاصّيّتها، وتوصل بخاصيّتها إلى الخاصّيّة الأخرى، لذا افتتح ديوانه (أشواق) بقصيدته الفاعلة (منارة العلم):

هيّـا هيّـا يـا أحبـاب   يـا إخـوتي يـا طـلّاب
نمشي سويًّا مجتمعين   من حارتِنا كالأصحاب
هيّـا هيّـا للمدرســةِ   لنــرى دربًــا للأمنيــةِ

فيها نبقى مستمعين وبها نفرح بالأنشطةِ
يا أحبابي هيّا نعمل لا نتواكلُ أو لا نكسل
بوظائفِنا مهتمّين حتّى نرقى للمستقبل
هيّا هيّا يا أحباب هيّا هيّا يا طلّاب[1]

فهموم الوطن والمواطنة قد لا تنتهي، أو يتمّ التغلّب عليها، دون أسّ قويّ، ألا وهو العلم، فالعلم أساس السّعادة والنهضة التّكامليّة، فالعلم حالة جميلة، يسعد بها النّاس كثيرا، فهي تبشّر بالرّواء والجمال والظلال، الّتي يستمدّ منها النّاس محبّتهم وسعادتهم، لذا نجد الشّاعر يحثّ آلشّريحة المستهدفة، للتواصل مع حلقات العلم والمعرفة؛ لأنّ التطوّر العلميّ والمعرفيّ، يوصل أصحاب الرّؤى الفاحصة، إلى الحرّيّة والاستقلال، والتّخلّص من حالات التخلّف، فالعلم يشكّل حالة من التشكيل الجماليّ، والنظرة الواقعيّة الفاحصة للحياة، فالمدرسة تشكّل حالة استثنائيّة للتخلّص من العبوديّة والخنوع، اللذين يسيطران على الحياة بمقاليدها المختلفة؛ لأنّ المدرسة تشكّل الأصالة ورمز الخلود، مع الكتاب الّذي يشكّل حالة استلهاميّة في الوجدان الإنسانيّ السّليم، فلا مجال هنا لإدخال مفردات عميقة، أو ضاربة الجذور في العمق المعرفيّ والدّلاليّ، وإنّما نجده يتعامل مع لغة سلسة طيّعة، توصل إلى الهدف المنشود، فلا نجد حالات التّأنّق اللفظيّ، أو الإتيان باللغة المفخّمة والجزلة، وإنّما اللغة البسيطة الّتي ترسم لنا جوانب الفكرة على شكل أبيات محدودة، كي يسهل التّعامل معها، ولا نجد حالات الإثقال على التّلاميذ والمتلقّين معًا.

فنراه يتنقل من جوّ المدرسة والحارة الّتي تضمّ الأصحاب الّذين تربطهم وشائج المحبّة والاحترام، إلى إحدى قرائن التّفاعل مع المدرسة، والدّيمومة فيها، ألا وهو الكتاب، فالكتاب غدا رمزًا وقيمة مؤكّدين في الحياة البشريّة كافّة، فكأنّه أي الشّاعر يؤمن بمسألة التتابع أو التكامل، فالكتاب حالة فريدة إلّا أنّها مكمّلة لمقوّمات معمار المدرسة الفكريّ والثّقافيّ

[1] محمّد ضمرة، **أشواق**، ديوان شعر للفتيان، دار الينابيع للنشر ط1، عمان عاصمة الثقافة العربيّة، 2002م.

والإنسانيّ، وهذا يؤكّد لنا عبرة مفادها أنّ الكتاب يشكّل لوحة ناطقة أو صديقا يثلج الصّدر والرّوح معا؛ لأنّ الكتاب يشكّل بنية فاعلة في نهضة الشعوب والرقيّ بها، على الرغم من أنّه صديق متواضع، لا يمنع عن أحد شيئا، ولا يؤثّر سلبًا على أحد مهما كان، لذا من لم يجعل الكتاب منهجا في حياته، يشعر بالحياة الضنكة والمفكّكة، وهذا نراه في لوحته الشّعريّة (الكتاب)

أخي هيّا إلى الكتبِ ... ففيها واحةُ النُجَبِ
وفيها العلمُ ينفعُنا ... وفيها روضةُ الأدبِ
وفي صفحاتها كنزٌ ... من الأشعارِ والخُطَبِ
تطالعُنا بأفكارٍ ... بلا جهدٍ ولا تعَبِ
وتؤنسُنا بجلستِنا ... وتؤنسُ كلَّ مضطربِ
فما جئنا إلى الدنيا ... لأجلِ اللهوِ واللعبِ
فهيّا يا أحبّتَنا ... لنفتحْ خزنةَ العجَبِ
ونفتحْ صفحةَ الماضي ... على الأحداث والنُوَبِ
فتربطُ ما جرى فيها ... لكلِّ عناصرِ السببِ
وشوقُ العقلِ للكُتُبِ ... لما تحويهِ من ذهبِ
فتطربُهُ وترفعُهُ ... فيرقى ذروَةِ السحُبِ[1]

إنّ نصّ الشاعر هنا، يحكي العلاقة بين الكتاب والمريدين له، لذا نراه يقدّم قيمًا تغنيه حتّى تصل إلى أكبر شريحة من المتلقّين، فقصّة العلاقة مع العلم عبر المدرسة والكتاب، لهي مؤصّل لها عند الشاعر ومن ناداه بالفكر والمعطيات معًا، فهو يطرح أفكاره بطريقة سلسة ومقنعة؛ لأنّ التأثيرات الجانبيّة على روحيّة النصّ قليلة إلى حدّ بعيد.

فكلّما كانت الفكرة واضحة، ومنتزعة من الواقع، كلّما نجدها قريبة من النفوس والعقول معًا، لأنّ الخصائص الفنّيّة وحدها لا تكفي لتفعيل العلاقة مع النصّ، أو ديمومتها، وإنّما

[1] ضمرة، **أشواق**، ص6-7.

حالة التوازن بين الفكر والمضامين، وأشياء أخرى، هي الّتي توصل لما يصبو إليه الإنسان من أشياء. فكلّما كان الأمر أو الحدث قريبًا من مستويات الإدراك للمتلقّين، كلّما كان الحال بعيدًا عن التعقيد الفكريّ أو الغموض الرمزيّ؛ لأنّ الفنّ ليس تعقيدا وإنّما هو رقيّ للذوق، وتنمية للفكر والروح معًا.

فالتعامل مع الكتاب يرينا الطريقة الحضاريّة الّتي توصلنا إلى مجتمع إنسانيّ، يدافع عن قيمه وثوابته، لا يقبل الخنوع، كما أنّه لا يقبل أن يعتدي على الآخرين، وهذا يجذب الانتباه، إلى أنّ حرّيّة الاختيار تنبع من الفكر نفسه، كما أنّ الفكر يوصل إلى الحرّيّة، فالحرّيّة والفكر وجهان لعملة واحدة، يوصلان إلى اكتشاف الذات أو النفس والذات معًا؛ لأنّ ما يطرحه الشاعر عبر سطوره الشعريّة ينمّي البعدين (الفرديّ والجمعيّ معًا)، دون خلق الحالة الضاغطة على الروح، فاختيار ما يجذب يفيد في عمليّة البناء حتّى "لا تتمّ عمليّة التطبيع أو التثقيف بشكل ضاغط يكبت الميول أو بشكل تلقينيّ ونمطيّ ينّفر...."[1]

فكلّما كان الأمر تلقائيًّا، كّلما تحوّلت العلاقة بين النصّ والطفل من المتعة الخالصة والزائلة إلى حالة من الاحتماليّة في المشاركة الوجدانيّة مع الشيء، وتلك توصل إلى الإحساس العقليّ بشعور الآخرين، فعندما يصل متلقّي الأدب إلى حالة من الإحساس العقليّ والفكريّ، تكون المسألة قد نضجت بعد تبلور كثيف، فالنصّ الأدبيّ ليس متعة أو للمتعة فقط، وإنّما يساعد على أمور كثيرة منها: تحوّل الطفل أو الفرد من التقوقع الذاتيّ إلى الانفتاح على المجتمع والتفاعل معه، حتّى نشعر أنّ الآخرين يغمروننا بقيمهم، كما أنّنا نغمرهم بعطائنا، أي أنّ الحالة تبادليّة بين المرسل والمستقبل على حدّ سواء، وهذا يقدّم الغذاء النفسيّ والفكريّ، ما يساعد الطفل على اكتشاف النفس مع المحيط، عبر الميولات المتعدّدة الّتي تصاحب الطفل منذ النشأة الأولى، حتّى متتاليات النموّ التكامليّ، وليس النموّ التذوّقيّ فقط.

[1] ذكاء الحرّ، **الطّفل العربّي وثقافة المجتمع**، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط1، 1984م، ص23.

وبذلك تتّضح معالم الفنّ ومكانته في النفس والمجتمع على حدّ سواء، ويجسّد دور الإنسان في إقامة العلاقات السليمة بين الذات والمحيط، أو بين أفراد المجتمع مجتمعين، لذا يتجاوز الأدب دوره "ليكون كاشفًا عمّا في هذه الحياة السّوية من انسجام ووفاق وإخاء محقّقًا السّعادة والأمن لكلّ من فيها وما فيها"؛ [1] لأنّ عمليّة التواصل مع الأدب تؤدّي إلى التشكيل الخفيف لوجداناتهم وصقل لمشاعرهم وتنشئتهم النشأة الصالحة، الّتي يتدافعون من خلالها صوب الحق، وتجسيد الفعل الجماليّ والخيريّ، وهذا يشكّل أساسا إيجابيًّا للتواصل الحياتيّ، فالأدب يجب أن ينهض بالإنسان فكريًّا وروحيًّا وقيميًّا وجسديًّا والتعامل الإيجابيّ والحبّ الفاعل مع العلم والتعامل على حدّ سواء؛ لأنّ كلّ ذلك يوصل إلى التوحّد الإيجابيّ مع اللّه، والعلاقة مع اللّه تأتي عبر أخيلة واسعة، وثقافة عميقة، وهذا يؤدّي إلى الاستقرار والتوازن النفسيّ والروحيّ؛ لأنّ اليقين في خلق العلاقة مع الله يثير المتعة، ويثري البناء العقليّ، ما يسهّل خلق العلاقة الإيجابيّة بين الذات الإنسانيّة ومع خالقها ومحيطها وقيمها.

فيما أنّ العلاقة مع الله والقيم تأتي عبر المدرسة والكتاب، نجد الشاعر وقد أكّد في نصّ جديد أنّ الإنسان إذا ما ابتنى العلاقة تلك عبر أسسها، فإنّه من السّهل عليه أن يصبح جنديًّا محترفًا في الدفاع عن القيم والوطن والمواطَنة، فكلّما كان الجنديّ واعيًا علميًّا وفكريًّا وعقديًّا، نجده شجاعا ومعطاءً، لا يبخل على الوطن والناس في شيء، وهذا لا يعني أنّ مَن حُرِمِ مِن نعمة التعليم وخلق العلاقة مع المدرسة والكتاب، لا مكانة له في المجتمع، ولا يكون صالحا أو شجاعا، وإنّما تكون المسألة نسبيّة، لكنّ الشاعر ينظر إلى العلم والمعرفة، ويؤكّد أهمّيّتهما في الحياة، حتّى إنّ الجنديّ المتعلّم والمسلّح بسلاح المعرفة، يستطيع أن يخوض غمار الحرب بأشكالها المختلفة عكس الإنسان الجاهل أو المحروم من نعمة المعرفة، لأنّ السعادة في العلم وللعلم في كلّ زمان ومكان، فكيف إذا استند الإنسان بالعلم والمعرفة والإيمان، بذلك يكون قد جسّد الأمور الإيجابيّة كلّها دون منازع.

[1] نجيب الكيلانيّ: **أدب الأطفال في ضوء الإسلام**، مؤسّسة رسالة بيروت، ط1، 1986، ص105.

جنـودٌ نحـنُ يـا بلـدي حمـــاةُ الحـــقِّ للأبـــدِ
نـدافعُ عنـكَ في شـرفٍ وفـي عـــزمٍ وفـي جلَـدِ
ولا نخشـى ســوى ربٍّ إلـــهٍ واحـــدٍ أحـــدِ
فأنـــتِ بلادَنـــا نـــورٌ سرى في الروحِ والجسدِ
ومنـــهُ قلوبُنـــا نبضَـــتْ فزالـــتْ ظلمـــةُ الكبـــدِ
وأنـــتَ منـــارةٌ شـــعّت بنـــورِ الخـــالقِ الصـــمدِ
مشـى في دربهـا رسُـلٌ وزهّـــادٌ بـــلا عـــددِ
لتبقـــى دائمـــا نـــورًا وهـــاديَ كـــلِّ معتقـــدِ
حمـــاك الله يـــا بلـــدي مـــن الآثـــامِ والنكـــدِ
وصـــانكَ ربُّنـــا دومـــا مـــن الأشـــرار والحســـدِ[1]

فالجندي يتّخذ من الإيمان وسيلة وغاية؛ لأنّه يسعى إلى إثراء الفكر والطموح، حتّى يحقّق الغايات كلّها.

فما يثير روحه، قد يستثير عقله، فعندما تتوحّد الخصيصة تلك، نجد الإيجابيّة وقد انطلقت من وحي الطفل وقيمه، فنراه يستبصر الحلول، ويشبع رغباته الإيجابيّة، ومدى الاستعداد للمتغيّرات "لمواجهة المواقف المختلفة، كما يهيّئ له في يسر وسهولة فرص الاستمتاع بما في الكون من عجب وجمال وجلال".[2]

فالعقيدة الّتي تأتي عبر يقين علميّ، تزيد من العمق في الرابط المعرفيّ، حتّى نرى بعدًا جديدًا في التفكير، وهذا يؤدّي إلى جذب مشاعر الطفل حينما يتأكّد له أنّ الجندي المؤمن والمتعلّم من أوائل المدافعين عن الوطن، فيكون الوطن هنا الغاية والوسيلة معًا، فالمحبّة تترسّخ مع الجنديّة والوطن والعلم والمعرفة اللذين ينمّيان حالة التفاعل والانسجام معًا، ويكون الوطن محميًّا عقديًّا ونفسيًّا وعلميًّا، وبذلك تتحقّق الوحدة مع الذات والوطن نرى

[1] ضمرة، **أشواق**، ص9-10.

[2] أُنظر محسن الصّاوي، **الموسم الثّقافيّ**، معهد التربية للمعلّمين، الكويت، 1985/84م، ص 100-123.

(أرض المجد) فاعلة صورتها إلى حدّ بعيد، وصورة البلاد الجميلة زاهية، يفوح منها الطيب والأمل، والعناق معها.

بـــــلادي الجميلـــــة كزهـــــر الخميلـــــة
ونفســـــي الأصـــــيلة تحـــــبُّ بـــــلادي
بلادي بلادي
هواهـــــا العليـــــل نســـــيمٌ جميـــــل
وفيهـــــا الأصـــــيل كثغـــــر بـــــلادي
بلادي بلادي
جبـــــالٌ ذراهـــــا ورمـــــلٌ رباهـــــا
وبحـــــرٌ نـــــداها محـــــيط بـــــلادي
بلادي بلادي
صـــــحاري كبيـــــرة ســـــهولٌ كثيـــــرة
وفـــــي كـــــلّ ســـــيرة هـــــوى مـــــن بـــــلادي
بلادي بلادي
وفيهـــــا المضـــــيق وغـــــورٌ عميـــــق
وأفـــــقٌ طليـــــق تغنّـــــي بـــــلادي
بلادي بلادي
عليهـــــا الثلـــــوج وفيهـــــا المـــــروج
شـــــذاها الخلـــــيج كعطـــــر بـــــلادي
بلادي بلادي
تحـــــبّ الســـــماء وتهـــــوي الضـــــياء
وأشـــــدو دعـــــاء لتحيـــــا بـــــلادي
بلادي بلادي
حمتهـــــا الأيـــــادي شـــــرورَ الأعـــــادي
ويحيـــــا فـــــؤادي بعشـــــق بـــــلادي

بلادي بلادي[1]

يحاول الشاعر أن يتغلغل في نفوس المتلقّين من خلال التناغم الإيجابيّ مع الوطن، عبر ذكر مسمّياته وبيئاته ووصف جغرافيّته المتعدّدة الأنماط، لأنّ ذلك كما نعتقد يثير الدهشة والجاذبيّة لدى الأطفال، وكأنّه يستعيض بذلك عن حرمانه من التمتّع بالوطن؛ لأنّه أُبعد عنه عنوة، نتيجة لاستلاب حقوقه من قبل الأعداء، المحتلّين لأرضه ووطنه، وحرمانه من المواطنة، فالقلوب تحتاج إلى ما يجذبها، فكيف قلوب الأطفال الصغيرة، والمليئة بالشوق والحنان، والبراءة.

فما وصف الوطن بسماته المختلفة، إلّا حالة ترويحيّة للنفس، مقترنة بالقيمة الفكريّة والعقديّة للوطن، الّذي هو حبّ الإنسان وعشقه وقيمه وثوابته، وكلّ ما يتوقّعه المرء أو لا يتوقّعه، وهذه إشارات جميلة إلى أهمّيّة الوطن وجماله الّذي يتعلّق به الإنسان الرائي له عبر النصّ الشعريّ، فكلّما كان النصّ صادقًا نراه قريبًا من النفس البشريّة؛ لذا نرى الشاعر ضمرة وقد اقترب كثيرا بمضامينه من الناس عامّة والأطفال بخاصّة، حيث نراه ينجح في الاقتراب من عالمهم الفنّيّ والتذوّقيّ، فكأنّه يعبّر عن الأمزجة التذوّقيّة للأطفال، فعندما نراه يتسلسل في وصف الوطن، عبر صور فاعلة وكاشفة عن هموم الناس، فكأنّه يعيش عالم الواقع والمتخيّل للأطفال، وهذا يتجلّى في النصّ الشعريّ الّذي يؤكّد لنا أنّ الشاعر لم يزل يحيا بداخله الطفل الّذي حُرم من الوطن والمواطنة على حدّ سّواء، فالّذي يفقد الطفولة في داخله فإنّه يعدم شعره الّذي يحاكي فيه الأطفال، أو الّذي يخصّصه للأطفال؛ لذا نجد الشاعر لم يزل محافظًا على طفله وتطوّر شعره الإيجابيّ، فهو مخلص للأطفال عبر إخلاصه لوطنه وقضيّته الفنّيّة، الّتي تنمو في شعره نموًّا ملحوظا، حتّى نرى ذلك في قصيدة (الأشواق) الّتي جعلها عنوانا للديوان الثاني ليرينا أنّ الطفولة لم تزل ببهجتها وقيمها من خلال تجسيد الحدث الّذي تتوالد منه المفارقات من المواقف المتعدّدة..

[1] ضمرة، **أشواق**، ص18-20.

لنـا يـا قـدسُ أشـواقُ فـنحنُ إليـكِ نشـتاقُ
فهـذا الحـبُّ يغمرنـا ودمـع العـين مهـراقُ
ونَحْـوَكِ دائمـا نجـري تميـلُ إليـكِ أعنـاقُ
فأنـتِ عيـونُ أمتّنـا ونحـن لهـنّ أحـداقُ
وعنـدَكِ بهجـةُ اللُقيـا نهـارٌ فيـهِ إشـراقُ
نحـنّ إليـكِ في شـغفٍ وعنـدَ لقـاكِ عُشّـاقُ
بـكِ الأسـوارُ تهوانـا وأبـوابٌ وأسـواقُ
ولا نرضـاكِ صـامتة وحـولَ الصـمتِ أطـواقُ
سـكنتِ قلوبَنـا صُـوَرًا وقـد عشـقَتْكِ أعمـاقُ
وفيـكِ صـلاتُنا قربـى إلـى اللهِ وتريـاقُ[1]

إنّ هذا التواصل الحميم مع الوطن بصور متعدّدة، يرينا أنّه يشكّل مادّة خصبة تغني الشاعر وتثري نصّه، ما يعني أنّ الصور تتداخل، والموضوعات متعدّدة، حتّى نراه يؤكّد أنّ القدس هي المحرّك الأساس للمشاعر الإنسانيّة، (للمرسل والمتلقّي على حدّ سواء)، حتّى نراه يخاطبها خطابًا فاعلًا، ما يرينا اهتمامه بها، ذاك الاهتمام الّذي يعكس روحيّة المتلقّي عبر نصّ "من الشعر السّهل، نظمها لتكون للأطفال أدبا وثقافة".[2]

[1] ضمرة، **أشواق**، ص30-31.

[2] أحمد شوقي، **الشوقيّات**، مجلّد 2، طبع دار المعارف، مصر، د.ت، ص 181.

فحينما تتأمّل قصيدة (أشواق) ترى صّورا صادقة، تخدم فكرته، وتقرّب أدبه من عالم الطفولة، والكبار أيضا، علمًا أنّه يوصلنا إلى الفكرة، عبر لغة سرديّة شفّافة لا تحمل بعدًا عنصريًّا أو لا نرى فيها ثقلا في روحيّة النصّ، فهو ينتقل بمشاعره عبر صور تتوالد منها الحركات الإيقاعيّة، النغميّة الجميلة؛ لذا استطاع الشاعر أن يصل بفكرته إلى شريحة عميقة من الناس، عبر سهولة الأسلوب، وثراء المضامين الّتي تجعل الوطن يزهو في النفس، ما يؤدّي إلى تنوّع المقاصد والمدلولات، فتكون صور القدس الخارجيّة مفتاحه، أو معبره إلى تجسيد صلة الإطلاق بالقدس، الّتي هي أسّ الوطن، أو رمزه المتنامي، فيكون نصّه الشعريّ قصيرًا، أو يميل إلى القصر؛ لأنّ طول النصّ الأدبيّ يفتّت عمليّة التلاقي والتواصل على حدّ سواء، وتأتي هذه النصوص محمّلة بقيم وصور جاذبة، قد نهلت من محيطه الضيّق أو الواسع، وكأنّا به يؤمن بعمليّة خلق المضامين الإيجابيّة والإيحائيّة، حتّى يتحقّق هدفه، ألا وهو توعية الأطفال بسلوكيّات متعدّدة، مقصدها تفعيل دور الوطن والمواطَنة، وينمّي سلوكيّات الأطفال بقيم خلقيّة، ترى العاطفة الصادقة تحفّ توجّهاتهم وتصرّفاتهم، ما يرينا مقاصد تربويّة فنّيّة ناجعة، وغايات تعليميّة من خلال العرض الجغرافيّ والتعدّديّ لملامح القدس.

تلك القيم الّتي آمن بها الشاعر ودافع عنها، ويتمسّك بها، وكأنّا به يدعو الآخرين للتمسّك بها، لكن ليس بطريقة ممجوجة، وإنّما بلغة شعريّة تجسّد الواقع، وطروحات الواقع، للتخلّص من تبعات الماضي، حتّى يزهر المستقبل.

التربية للقيم الإسلاميّة- اللقاء مع التاريخ

نرى الشاعر في المحور السابق وقد انتصر لفكرته، حينما تخيّل له أنّ الأمور الإيجابيّة قد تحقّقت، ما نقله إلى المحور الثالث من قصائده، لترينا مسعًى جديدًا لديوانه الثالث (الأيّام الخضر)، وكأنّه يقول إنّ العلم والثقافة يشكّلان مدخلًا لتحرير الأوطان، وإذا ما تحرّرت الأوطان، فإنّا نعود إلى رشدنا، ونتمسّك بحقوقنا ومكتسباتنا أكثر، لذا نراه، يعود للتاريخ، وخاصّة تاريخ الدعوة الإسلاميّة، من أوّليّات النماء لها، وانتصار فجرها، وبزوغ هلالها، حتّى

إظهار حالات النصر الّتي تحقّقت على يديّ الرسول الكريم محمّد (ص) وكأنّه يقول: إنّ نصر الرسول محمّد في دعوته، جاء بعد التوحّد مع الذات والصبر والثبات في المواقف كلّها، حتّى أدّى ذلك إلى النصر في المعارك والتقدّم نحو بناء الدولة فكرًا وثقافة واقتصادًا وسياسة، فكانت غزوات الرسول ومعاركه مفتاح صدق للقادم من الأيام في زمن الرسول والأزمنة الّتي تمسّكوا بها بتعاليم الرسول وقيمه وسلوكيّاته، فكأنّ العمل بمثابة السرّ الحقيقيّ في إحقاق الحقّ، والثورة على الظلم، كما جعلها مسترسلة وفاعلة، كلّ ذلك بلغة سرديةٍّ إخباريّة بسيطة تهدف إلى كشف أستار الغشّ والظلم، والتوحّد ضدّه، كي تنقشع غيومه، ويتساوق الفاعلون بمبدأ الواجب، ما يعني اتّساع مدارك الأطفال والمتلقّين؛ لأنّه، أي الشاعر، ربط بين أشياء كثيرة ومهّد لها تمهيدا ناجعا، فكأنّا نتلمّس أنّ الشاعر يريد تسلسل الحدث بناء على أسس فكريّة لا عاطفيّة فقط، وإنّما لا بدّ من تلازميّة الفكر والعاطفة معًا.

فتكون قصيدته (دار الأرقم) مفتتح ديوانه الثالث (الأيّام الخضر)، فتكون دار الأرقم من مكوّنات النهضة الفاعلة حتّى تتحقّق الأيّام الخضر، فهي المكان الّذي كان يعلّم فيه الرسول أصحابه ويلتقي بهم، وتشكّل معبرًا للتعرّف على النفوس الباحثة عن الحقّ، والمؤيّدة له، والناصرة له، والمنتصرة به، فهي، أي الدار، المكان الّذي تعرّف من خلاله كثير من الصحابة على أمور دنياهم وأخراهم، وتثقّفوا بالدين الجديد وقيمه، وكانت مفتاح صبرهم وثباتهم، فعمليّة الانتصار والعودة إلى الحلم (الوطن) كما يظنّ، جعله يعود إلى التاريخ الإيجابيّ والمجسَّد في نفوس الناس وعقولهم، فكان التاريخ الإسلاميّ بمسمّيات متعدّدة فاعلًا من خلال نصّه الشعريّ، حتّى جعلها مادّة في نصّه الشعريّ المتجدّد في العطاء والنماء، وهذا هدف تربويّ واضح يساعد على أهمّيّة التاريخ والحُقب المتتالية من حياة الإنسان، أي أنّ الإنسان لا ينفصل عن تاريخه مهما كانت الظروف الّتي يمرّ بها، ويتفاعل معها، فدار الأرقم غدت قيمة سلوكيّة ينبغي أن يتمثّل بها الناس لما أكسبتهم من قوّة ورباطة جأش ومحفّز وانتصار للذات المؤمنة:

يـــا دارَ الأرقـــمِ مُـــدّينا بضـــياءٍ منـــكِ يزكّينـــا
فلأنـــتِ منـــارةُ عِزّتِنـــا أهـــديتِ الكـــلَّ رياحينـــا
مِن مجدِكِ شعَّ بموطننا نـــورٌ قـــد جـــاءَ ليهـــدينا
وينيـرُ طريقًـا في غـدِنا كي نقطـفَ زهـرَ أمانينـا
يـا دارَ الأرقـمِ يـا مجـدًا جلّـى بـالحقّ ليالينـا
تاريخُـكِ عطـرٌ يبهجُنـا وبهـاؤُكِ حلّـى ماضـينا
والحاضرُ نحوكِ مشدودٌ لتظلّـي مشـرقةً فينـا
فيـكِ القـرآنُ بـدا يُتلى ولـه أصـبحنا تالينـا
الشـوقُ إليـكِ يلازمُنـا لنعـودَ إليـكِ فعيـدينا[1]

إنّ هذا التساوق والتفاعل العاطفيّ والإيمان العقديّ بالّذي كان يجري من أحداث (بدار الأرقم بن أبي الأرقم) لهو استثارة ملكة الخيال والتصوّر عند المخاطبين (الأطفال)، حيث يحلّق بهم في خيالات واقعة في التاريخ؛ لأنّه يريد أن يتجاوز الواقع، لينتصر للتاريخ المنتصر لذاته، فهذا يرينا خيالات واسعة يتأمّلها الأطفال أو يستشرقون بها، ما يرينا تنمية طاقات الطفل التخيليّة والتلاحميّة مع الحدث، وهذا يجمع بين سعة التأمّل الروحيّ والنفسيّ ومتعة التعرّف على التاريخ الحافل بالإيجابيّات والانتصارات، لأنّ مثل ذلك يثير حالة من الاستفزاز الذهنيّ الإيجابيّ، حتّى ينهض الناس من كبوتهم؛ لأنّ التوحّد مع الذات، ورفض الخنوع، يؤدّي إلى نهضة شموليّة، وانتصار للحقّ، ومن ثمّ يؤدّي إلى مشاركة الحياة الإيجابيّة الفاضلة. فما جاء به الشاعر من فكرة (التاريخ منهلها) نجدها محورا لبناء شعريّ، هذا البناء الّذي أبعد فيه الشاعر عن الخيال أو الجموح في الخيال، ما يعني فقدان المصداقيّة، إلّا أنّ الشاعر وصّلنا إلى هدف حقيقيّ تسعى إليه القصيدة وشبهاتها، ألا وهو عدم الاتّكال على الآخرين، والبحث الدؤوب لانتصار المبدأ والمعتقد، كما فعل المجتمعون في دار الأرقم بن أبى الأرقم، هذا النصّ لا يرينا إسرافا في الخيال يعرّفنا أو

[1] محمّد ضمرة، **الأيّام الخضر** شعر للفتيان، دار البيرق للنشر والتوزيع، ط1، رام الله، 2003، ص 4-5

يحيّدنا عمّا نحن فيه، فالصور الّتي لازمت المجتمعين في دار الأرقم، هي صور إيحائيّة تحمل القيم الإسلاميّة وأصول التضحية من أجل الهدف النبيل؛ لأنّ الّذين اجتمعوا في دار الأرقم، كانوا معرّضين للموت والاضطهاد في كلّ لحظة يمرّون بها؛ لذا لا نجد خيالا منفصلا عن الواقع ولا واقعا لا يستطيع الخيال أن يجسّده، وإنّما هي حالة تماثليّة صادقة، بصور شعريّة ناضجة وصادقة أيضا، وكأنّه يحثّ الجيل على الخلاص من نكباتهم عبر التشاور والطمأنينة والمصداقيّة في خلق الدافعيّة، والسلوكيّات الإيجابيّة، ما يدفع الأطفال إلى التمعّن في سلوكيّات من اجتمعوا في دار الأرقم، على اعتبارهم قدوة لسلوك مؤكّد، أوصلهم إلى النجاح والخلاص من تبعات ما كان يدور من حولهم من خفايا مقصودة. فالصدق يوصل إلى النجاة، ويحثّ الأطفال على متابعة سلوكيّات من اجتمعوا في دار الأرقم، وافتراض ما يحدث من إيجابيّات، وتمضي القصيدة على هذا النحو من تبسيط للفكرة، بألفاظ بسيطة، وعبارات وتراكيب مميّزة في حسن الأداء، حتّى لا تتباعد المسافة بين الصادقين والمضحّين؛ لأنّ التضحية أسّ فاعل لإنجاح الحياة، والانتصار للمبدأ والفكر معًا. ويتمثّل ذلك في الاستعداد للتضحية، وما تحفل به من صور البطولة والشجاعة والفداء، فالذي " يقرأ هذا النوع من الشعر يجد اللذة والمتعة والخيال والقوة؛ لأنّه يظفر براحة النفس، حيث يبتعد عن هموم الواقع وثقله". [1]

فزيادة على ذلك يستطيع هذا النوع من الشعر أن يحظى بمحبّة الأطفال، وإقبالهم على التواصل معه، حتّى تتداخل الأمور تداخلًا إيجابيًّا؛ لأنّنا نجد حالة التأمّل والاستقصاء واضحة ومتطورة في نفوسه بعض الأطفال وميولاتهم، حيث تسبق عقل الطفل الزمنيّ، وهذا يوصلنا إلى نتيجة مفادها:

أنّ الطفل المفكّر بمحيطه وعالمه وتاريخه يكون قائد المستقبل وبطل الفداء اليقينيّ، فيقين من تحاوروا وتشاوروا في دار الأرقم أدّى إلى قرار حتميّ، يؤدّي إلى الانتصار لمبدئهم وقيمهم

[1] نادي ساري الديك، **أدب الأطفال من السومريّين حتّى القرن العشرين**، مؤسّسة الأسوار، عكّا، ط1 2001 ، ص 162.

وفكرهم وعقيديتهم؛ لأنّهم امتثلوا لأوامر الله سبحانه الّتي تصلهم عبر رسوله الكريم محمّد (صلّى الله عليه وسلّم)، فكانت رحلة الهجرة الّتي تبنّاها الشاعر فكرًا، وخلّدها لينقل صورها لأناس لم يعاشروها زمنيًّا، أو لم يعيشوها زمنيًّا، ولم يعيشوها فكريًّا وعقديًّا وتاريخيًّا، فتكون الهجرة وسيلة ناجعة للانتصار للحق؛ لأنّ "الرجوع إلى الماضي الذهنيّ لم يكن غاية في حدّ ذاته، بقدر ما كان وسيلة لتأكيد الانتماء التاريخيّ عن طريق تذكير الأطفال بما كان يزخر به وطنهم من مجد وعظمة، إيمانا من الشاعر بأنّ التاريخ لا يستعاد إلّا بإحيائه وتأمّله واستلهام أحداثه ورموز أبطاله".[1]

فالمعرفة الحقّة، أو الأطر المعرفيّة المعمّقة، تعيد الناس، والشاعر تحديدًا، إلى مرجعيّة ضاربة في أعماق التاريخ، فكلّما كان إحساس الشاعر عميقا بالتاريخ، كلّما تعدّدت أنماطه التعبيريّة، حول الخصب والنماء والمعرفة الإنسانيّة، فالحلم والجمال والخيال والمتعة، كلّها من قيم الطفولة الّتي يبحث عنها الشاعر عبر الأطفال، فهم قادة المستقبل؛ لأنّ التعلّق بالوطن لدى الأطفال يختلف عنه لدى الكبار، فالإنسان البالغ يرى في الوطن العظمة والشموخ والانتماء الفكريّ والعقديّ، بينما الوطن عند الأطفال هو ذكريات تنعش الروح وتنمّي الذاكرة، وتجعل العواطف تتفاعل تفاعلًا واضحًا؛ لذا نجد التفاعل قد تمّ فعلا بين مَن يجتمعون في دار الأرقم، حتى يجسّد ذلك في تجسيد الأمر الإلهيّ، انتصارًا للعقيدة الإسلاميّة، عندما تمّت الهجرة إلى يثرب، حيث السند القويّ للمسلمين، والبيئة الجديدة الخالية من الجبروت كما هي مكّة:

فجـــرٌ أطـــلَّ ببســـمةِ   عيـــدًا بيـــوم الهجـــرةِ
ذكـــرى ليـــومٍ عـــاطرٍ   ومكلّـــــلٍ بالفرحـــــةِ
حيثُ الرسولُ وصاحبُهْ   خرَجَـا معًـا مـن مكّـةِ
والكفـرُ كـانَ وراءَهُـم   متتبّعًـــــا للخطـــــوةِ
ومحمّـــــد ورفيقُـــــهُ   دخـــلا بغـــارِ الخِفيـــةِ

[1] قرانيا، **ظواهر التجديد في قصيدة الأطفال في سورية**، ص231.

حتّـى تراجـع مكـرُ   مَن جاءوا لصدّ العزّةِ
فاللهُ كانَ مؤيّدًا   لنبيّـهِ بالمنعةِ
فمشى وصاحبه إلى   أنصارِهم في طيبةِ
خرجوا إليه بفرحةٍ   وقصائدٍ منظومةِ
وأتى الرسولُ لدارهم   فتشرّفوا بالهيبةِ[1]

إنّ نجاح الشاعر في تعامله مع (المكان / الحدث/ الماضي) يتطلّب التقاطع الحقيقيّ بين ركني الحضور والغياب على السواء، ويمنح المفردة اللغويّة بعدًا شعريًّا من خلال شحنها عاطفيًّا، فتنداح منها العبرات في مرجعيّتهما المعرفيّة الّتي تنقلنا مع الطفل نقلة نوعيّة في تعامله مع المكان (يثرب) والزمان (صبغة الهجرة ومتتالياتها)، فالوطن عند الشاعر (ضمرة)، امتداد تاريخيّ متجسّد في رموز المعرفة الثقافيّة والفكريّة والدلاليّة، فما تجلبه يثرب من رؤى فنّيّة يترك أثرًا في النفس، لما أقدم عليه الناس من حالات المآخاة والمحابية بين المسلمين (المهاجرين والأنصار)، فما جسّده من صور يرينا ترابط الطفل ارتباطًا روحيًّا ومعرفيًّا يرتحل مع النفس الإنسانيّة في الأزمنة والأمكنة كلّها، فتغدو الهجرة حلمًا يبني من خلاله الطفل آمالًا عميقة وعريضة، فتكون مساحات الحلم واسعة باتّساع الخيال؛ لذا نجد يثرب من خلال طقوس الهجرة ليست مكانا مادّيًّا، وإنّما هو مكان حلميّ عقديّ إنسانيّ يتجسّد عبر أردية الزمن (الماضي والحاضر والمستقبل)، فهي ملتقى القبائل العربيّة والحاضن للمضطهدين من المسلمين، وهي منارة أوّل كينونة عربيّة إسلاميّة لنشأة الدولة العربيّة بثوبها العقديّ الإسلاميّ؛ لأنّها أي العقيدة الإسلاميّة، لم تلغ العقائد الأخرى، ولا الأجناس الأخرى؛ لذا انصهر كثير من الأعراف والأجناس، من خلال التسامح الحقيقيّ للّذين أسّسوا الدولة العربيّة بفكرها الإنسانيّ وثوبها العقديّ الربّانيّ:

[1] ضمرة، **الأيّام الخضر**، ص7-8.

فيثرب كانت مجزّأة بين القبائل وأصحاب العقائد (الأحناف + اليهود + الوثنيّين) وكانت الحروب لا تهدأ بينهم، حتّى جاء الإسلام وتحقّقت الهجرة إليها، فغدت منارة للعلم والمعرفة والتفاعل الإنسانيّ والعقديّ، وهي مركز الثقل السياسيّ والعقديّ عند العرب والمسلمين آنذاك، ولم تزل تمثّل قِبلة المحبّة والطمأنينة للباحثين عن روح الأمان والمحبّة والإخاء؛ لذا نجد هذا الترابط المحكم بين الماضي والحاضر، من خلال بعث الماضي عبر صور استشرافيّة فاعلة، حيث نجد نفحات من الحب الرابط العقديّ بين القدس الّتي هي أسّ وطن الشاعر وبين يثرب التي هي ملجأ الطمأنينة للمسلمين وأول نواة لدولتهم، فهنا نرى الترميز الشفيف لما تحمله يثرب من دلالات عميقة ومن لحظات انتصارات ماضية حاضرة لا تغيب عن نفوس الناس وعقولهم؛ لأنّ هذه الانتصارات تمثّلت في بدايات الهجرة من مكّة إلى المدينة الّتي أعطاها الشاعر منظومة من القيم الإنسانيّة "لأنّها أصبحت نتاجا إنسانيًّا ثقافيًّا، بسبب امتداد معانيها".[1] فالهجرة لا تحقّق أهدافها في زمننا المعاصر إلّا من خلال الثورة الّتي يصنعها الأطفال، رجال الغد المشرق المنير بالقيم العقديّة الصادقة، والمبادئ الآمنة على حرّيّة الناس ومقدّرات الوطن والمُواطن، فالوطن الوعد هو المكان الشعريّ الّذي يحلم به الشاعر الّذي ينقله بشعره إلى الأطفال، فما الهجرة ودار الأرقم والقدس وغيرها من المتلازمات الّتي تسير مع الشاعر عبر نصوصه الشعريّة، ما هي إلّا رؤى منشودة، يضفي عليها الشاعر من جمال روحه وصنيع فكره وثقافته، حيث تتّخذ رموزه ومسمّياته جماليّاتها من صميم معمار القصيدة الفنّيّ. فانتصار الهجرة وتفاعل المهاجرين مع الأنصار في بيئة تستقطب الفكر الجديد والعقيدة الجديدة أدّى إلى "إضفاء صفات مكانيّة على الأفكار المجرّدة، يساعد على تجسيدها وتستخدم التعبيرات المكانيّة بالتبادل مع المجرّد، ممّا يقرّبه إلى الإفهام، وينطبق هذا التجسيد المكانيّ .... بل إنّ هذا التبادل بين

[1] بيتر هنت، **مقدّمة في أدب الطفل**، ترجمة إيزابيل كمال، مراجعة طلعت الشايب، المركز القوميّ للترجمة، ط1، الجيزة، القاهرة، 2009 م، ص 118.

الصور الذهنيّة والمكانيّة يمتدّ إلى اتّصاف معان أخلاقيّة بالإحداثيّات المكانيّة النابعة من حضارة المجتمع وثقافته".[1]

فإحداثيّات الهجرة ليس لها حصر في سلوكيّات مريديها، نظرًا للمصداقيّة الّتي يتلبّسها الناس ويتفاعلون معها، فالنصّ الشعريّ قد ينقل إحداثيّات الهجرة، لكن ليست كافية، لأنّ الزئبقيّة الّتي يتمتّع بها النصّ الشعريّ وسياحته في عوالم جديدة متخيّلة وواقعيّة تجعل الأمور ليست سهلة، ما حدا بالشاعر أن ينتقل عبر موضوعات متعدّدة، بدءا من دار الأرقم أسّ المعادلة، إلى الغزوات المتعدّدة، بدءا من بدر وانتهاء بتبوك، إذ كلّ منها سماتها وخصوصيّتها الّتي جسّدها نصّ الشاعر وأثبتها التاريخ.

ومن ينظر في نصّ الشاعر (الهجرة) وهو عنوان قصيدة الهجرة، يجد في ذلك دلالة بنيويّة عامّة، أن تعتلي الهجرة عتبة النصّ، ألا وهو العنوان، وهذا يجعل العلاقة بين هجرة الرسول والمسلمين والأطفال علاقة إيجابيّة، حيث يضع المتلقّين في جوّ الموضوع، وينقلهم روحيًّا إلى عالم حقيقيّ حدث في التاريخ، لكنّه متخيّل الآن، للتباعد في الزمن، واختلاف البيئات الجغرافيّة، فعالم الجمال الّذي تتركه الهجرة في النفس المؤمنة بكينونتها وانبعاثاتها، يجعل منها جوهر اهتمام للطفولة وغير الطفولة من الكبار؛ لأنّها تتّسم بالحرّيّة وانطلاقة القيد عن الدين والمؤمنين به، ما يجعلها رمزا للنماء والخصب، ومسربًا واسعًا للانطلاقة نحو العمق الدلاليّ للمسألة العقديّة الّتي يدافع عنها (مريدو الهجرة)، والمنخرطون في ديمومة علائقها؛ لذا نجد الشاعر وقد اعتمد الأسلوب الإخباريّ الوصفيّ السّرديّ، لأنّه لم يعتمد الأسلوب الحواريّ، فكان صوته هو الدّال على الحدث (صوت الشاعر) ليتغلغل" إلى أعماق الأمكنة والوقوف على أبعادها الجماليّة، المظلّلة بأطر مكانيّة

[1] سيزا أحمد قاسم، **بناء الرواية**، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، مصر، د.ت، ص 75.

وزمانيّة ونفسيّة مريحة تجعل الحواسّ تستيقظ وتتحفّز لتلمس ما فيها من سحر وجمال وجاذبيّة". [1]

كلّ ذلك يجعل من موضوع الهجرة مسألة تنكشف صورها كي يتجاوز جغرافيّة المكان والزمان معًا، فتغدو العلاقة شموليّة جماليّة في العالم الأثيريّ للأطفال. فالشاعر يستطيع أن يسافر بخياله عبر أمكنة وأزمنة متعدّدة، ويقدر على أن ينقل المتلقّي إلى ذلك أيضًا، ويتفاعل معه تفاعلًا عظيمًا ومقصودًا، فكان فتح مكّة إيذانا ببدء نصر مؤصّل في النفس المؤمنة، بامتدادات الأمور وتفرّعاتها في الديمومة الّتي حصلت:

اَللهُ يبشّــرُ فـي الحُلُـمِ مَــنْ كـانَ رســولًا للأُمَـمِ
والرؤيـا صدْقٌ من وحيٍ لا ينطـــقُ إلّا بـــالحكُمِ
ويســيرُ محمّــدُ هادينـا في جـيشِ التقـوى للحـرَمِ
ويكبّـــرُ عشـــرةُ آلافٍ والكــلُّ بصــفٍّ منــتظمِ
لكتائبَ خضـرٍ أو صـفرِ وعقــابُ الرّايــةِ كــالعلمِ
ونفـوسٌ كانـت صـائمةً في شـهرِ الطاعـةِ والكـرَمِ
يمشـونَ لمكّـةَ في ثقـةٍ بالنصــرِ وفــتحٍ بــالنعمِ
ويــتمُّ الفــتحُ ورايتُــهُ تعلــو بــالوادي والقمــمِ
والكعبـةُ تبـدو باسـمةً بـزوالِ الباطـلِ والصّـنمِ
ومحمّـدُ يعفـو عـن أهلٍ عفـوًا واستوصى بـالرّحمِ [2]

إنّ رحيل الشاعر عبر مسمّيات لها وقع في النفوس وصدى في الفكر والعقيدة، ليجعل منها عالمًا سويًّا يفوق التقليديّ والمتوقّع، وكأنّه يطرح بديلًا عن الأمور القائمة الآن، حيث يكون التاريخ مصدر إلهام، والانتصارات الّتي خلّدها التاريخ مصدر عطاء وتطوّر فاعلين، وهذا يتجاوز الواقع إلى بعد أعمق وأشمل؛ لأنّه يصنع حالة من العالم الزاخر بالحرّيّة والانطلاقة

[1] قرانيا، **ظواهر التجديد في قصيدة الأطفال في سورية**، ص256.

[2] ضمرة، **الأيّام الخضر**، ص، 22-23.

نحو التشبّث بالقيم والعطاء، وقد ساعدت ميولاته نحو تعدّد الأمكنة والمسمّيات الفاعلة إلى تنمية النصّ، وجعله قبلة الطفولة الّتي تسعى لتجسيد ذاتها، وخلق حالة من الانتماء لتاريخ أمّة عريقة، قدّمت للبشريّة خدمات جليلة لا تنحصر في باب واحد، أو مسرب واحد، وهذا الأمر يشكّل فضاء زاخرًا بالأمل والطمأنينة؛ لأنّ حالات اليأس والكبوات الّتي يعيشها الناس الآن، لن تبقى على حالها، أو على وتيرتها السّلبيّة؛ لأنّ حالات التغبير سرعان ما تحصل، وتنقلب الأمور رأسًا على عقب، لذا نجد الشاعر وقد أولى " العنوان أهمّيّة بالغة، نظرًا لخصوصيّته الجماليّة، وفلسفته القائمة على التواصل مع النصّ من جهة، ومع مستقبلات المتلقّي من جهة ثانية". [1]

فالنصّ ومن خلال عنوانه، يشكّل قوّة ضاغطة على مركزيّة البنية العاملة والتوجّهات لدى المتلقّين، وهذا الأمر جعل الشاعر أنداده يتوسّعون فيه، فجماليّات العنوان، ودلالاته تكشف عن الأبعاد الفلسفيّة واتّخذت منه أساسًا لتوجيه الاهتمام بالبنية ودلالاتها المتعدّدة، وليس في توجّه واحد فقط، فالعنوان، بؤرة إشعاعيّة لها ديناميكيّات فاعلة، حيث يحمل ذاته ومجمل عالم القصيدة، الّتي هي العامل الموضوعيّ في خلق الترابط بين المرسل والمتلقّي والفكرة القائمة بين الأمرين.

فالحالة الّتي جاء بها الشاعر عن فتح مكّة، تخلق حالة خفيّة إلى الحالة الواضحة الّتي يتمركز من خلالها الشّاعر، فدلالات فتح مكّة تشكّل محورًا أساسيًّا في روحيّة النصّ، فالعلاقة مع المسمّيات (الأزمنة والأمكنة) تشكّل إغواء بصريًّا تمتدّ جاذبيّته عبر السطور، وصولًا إلى العمق النابع من جوّانيّات النصّ، فالتمعّن في النصّ يعرّفنا على مفردات ذات دلالات معمّقة، بقدر ما تتعدّد في الأشكال والمسمّيات، وهذا يمكّن المبدع والمتلقّي من الاندماج في لحظة الإشراق الّتي تولّدت من ماهيّة النصّ والّتي تمكّن من تحقيق شاعريّة

[1] محمّد صابر عبيد، جماليّات العنوان، وفلسفة العنونة، **مجلّة عمان**، العدد (80)، شباط، 2002، ص 71.

التوافق بين الذاكرة الممتدّة في التاريخ ومقتنيات المكان الّتي تستجلب عواطف الإنسان المبدع أو المتلقي للإبداع في آن معًا.

مثل هذه المسمّيات لها بعد وجدانيّ عقديّ، تدلّل على أهمّيّة الحدث في الزمان والمكان معًا، فقد تتعدّد الأمكنة والأزمنة الّتي لها علائق ووشائج متعدّدة، يتمثّل بالعودة إلى الوراء، والغوص في عمق الزمن الممتدّ، لأسباب متعدّدة، منها الخلاص من الواقع وتبعاته، ومنها تجسيد القيمة الإنسانيّة للحدث بكلّ مسوّغاته المتعدّدة الّتي تشكّل علامات فارقة في عمليّة التواصل والارتباط؛ لأنّ الارتباط بحدث تاريخيّ أو بشخصيّة تاريخيّة يساعد في إظهار معالم الحياة الخاصّة والعامّة للأفراد والأمّة على حدّ سواء، فترتبط تلك المسمّيات بالذاكرة المتلقيّة، فتتألّف بذلك قيمة الزمان أو المكان أو الشخصيّة؛ لأنّها كلّها من المتداخلات.

لذا نرى أنّ استحضار الماضي يعني تجاوزًا لأزمات الحاضر، لاستكمال المشروع الحضاريّ والإنسانيّ، الّذي يطمح الآخرون بتحقيقه، فيكون الطفل اللبنة الأساس في إنهاض هذا المشروع، وهكذا يتحوّل الرمز المعنيّ إلى عمليّة بناء مستقلّة مبحوث عنها.

الخاتمة

بعد أن شخصت الدراسة في النوّر، نستطيع القول إنّ الشاعر (محمّد ضمرة)من الأصوات الحيّة الّتي أفادت من معطيات الحياة، وهموم البيئة، في بناء نصّه الشعريّ المعدّ للأطفال، ما جعله يوزّع هذا النتاج بين ثلاث مجموعات صغيرة وهي (دعاء الغريب، وأشواق، والأيّام الخضر). وبعد القراءة المتأنّية في شعره المقصود، تبيّن أنّ الشاعر جعل في دعاء الغريب عنوانات متفرّعة تضمّ عشر قصائد، أخذت مضامينها من الصراع القائم حول الأرض والعذابات الّتي لحقت بالمجتمع العربيّ الفلسطينيّ إثر النكبات المتلاحقة، منذ أوّليات القرن العشرين حتّى يومنا هذا.

وأمّا ديوانه أشواق، فقد خصّه بسمة فاعلة، وجعل العلم والعلاقة مع الكتاب محوريّة الأداء المقصود، ونراه قد وزّع موضوعاته على عشر قصائد كلّها تصبّ في معين واحد، وهو أنّ الأمة لا تنهض إلّا بالعلم، وأنّ الوطن لا يتحرّر إلّا بالعلم، وكذلك القدس نبراس الوطن لا يرجعها إلّا العلم المتجذّر والفاعل في عقول الناس ونفوسهم.

وأمّا الديوان الثالث فقد أعطاه عنوانًا مفرحًا ألا وهو (الأيّام الخضر)، وجعل مادّته من التاريخ الإسلاميّ المشرق، بدءًا بأوّليّات الدعوة الإسلاميّة، وعلاقة المسلمين بدار الأرقم بن أبي الأرقم بمكّة، ثم انتصار الدعوة المتمثّل في مجموعة من الغزوات الّتي خاضها المسلمون بإمرة النبيّ عليه السلام، وكذلك وزّع تلك المضامين على عشر قصائد.

ومن ينظر في نتاجه الشعريّ يرى أنّ صوت الشاعر هو المتميّز أو المسيطر، وأنّ حالة الإخبار والسّرد هما الواضحتان، بمعنى أنّ الحسّ الدراميّ والحواريّ في هذه المجموعات منعدم، ولا وجود له، وكذلك لغة الشاعر لغة سلسة غير مكثّفة، وهي في تناول جميع الطبقات، لكنّها إخباريّة سرديّة، وصوره شفّافة وواضحة، ولا يوجد رموز معقّدة، وإن ذكر بعض الرموز نراها شفّافة وسهلة المنال، وهذا يؤكّد أنّ أسلوب الشاعر متجانس في موضوعاته المتعدّدة، إن كانت من حياته وشعبه، أو من تأمّلاته وطموحاته، أو أخذها من التاريخ، نتلمّس صوته وسرده للموضوع هما المسيطران، وعلى الرغم من ذلك ينجح في إيصال فكرته للشريحة المستهدفة ألا وهي شريحة الفتيان، الّذين هم قادة المستقبل، لبناء وطن متجانس بعطاء أهله، وثقافتهم الفاعلة والمؤثّرة في الحياة.

المصادر والمراجع:

1. شوقي، أحمد. **الشوقيّات**. المجلّد الثاني. مصر: دار المعارف، د.ت.
2. هنت، بيتر. **مقدّمة في أدب الطفل**. ترجمة إيزابيل كمال، مراجعة طلعت الشايب. الجيزة، القاهرة: المركز القوميّ للترجمة، 2009م.
3. **دليل الكاتب الفلسطيني**. منشورات اتّحاد الكتّاب الفلسطينيّين. رام الله، فلسطين: مطبعة أبو غوش،2001م.
4. الحرّ، ذكاء. **الطفل العربيّ وثقافة المجتمع**. دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1984م.
5. العيسى، سليمان. **شعر الأطفال**. سوريا: د.ن، 1981م.
6. قاسم، سيزا. **بناء الرواية**. مصر: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د.ت.
7. شرارة، عبد اللطيف. **إلياس أبو شبكة**. بيروت، لبنان: دار الصّياد، د.ت.
8. عيسى، فوزي. **أدب الأطفال**. الإسكندريّة: منشأة المعارف، جلال حزبي وشركاه، 1998م.
9. الصّاوي، محمّد حسن عبيد. **كتاب (الموسم الثقافيّ)**. الكويت: معهد التربية للمعلّمين، 1986م.
10. عبيد، محمّد صابر. جماليّات العنوان، وفلسفة العنونة. **مجّلة عمان**. العدد(80)، شباط، 2002م.
11. ضمرة، محمّد. **أشواق**. ديوان شعر للفتيان، عمّان عاصمة الثقافة العربيّة. عمّان: الأردنّ دار الينابيع للنشر، 2002م.
12. ضمرة، محمّد. **الأيّام الخضر**. ديوان شعر للفتيان. الأردنّ، فلسطين: دار البيرق للنشر والتوزيع، 2003م.
13. ضمرة، محمّد. **دعاء الغريب**. عمّان، الأردنّ: دار الينابيع للنشر، 2002م.

14. ضمرة، محمّد. **قافلة الليل المحروق**. عمّان، الأردنّ: د.ن، 1972م.

15. قرانيا، محمّد. **ظواهر التجديد في قصيدة الأطفال في سورية، دراسة تطبيقية**. سلسلة دراسات، 3. دمشق: منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، 2008م.

16. الديك، نادي ساري. **أخوة التراب وهموم المكان، دراسات تأصيليّة في الشعر الفلسطينيّ المعاصر**. القدس، فلسطين: جامعة القدس المفتوحة، 2010م.

17. الديك، نادي ساري. **أدب الأطفال من السومريّين حتّى القرن العشرين، دراسة نقديّة تطبيقيّة**. عكّا، فلسطين: مؤسّسة الأسوار، 2001م.

18. الكيلانيّ، نجيب. **أدب الأطفال في ضوء الإسلام**. بيروت، لبنان: مؤسّسة الرسالة، 1986م.